المبحث الرابع
السلطان ملكشاه

هو السلطان الكبير جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان محمد بن جغري بك السلجوقي التركي، تملك بعد أبيه، وديّر دولته النظام الوزير بوصية من ألب أرسلان إليه في سنة خمس وستين [1].

أولاً: تربية ملكشاه على إدارة السلطنة ونوطيد الملك لـه :

1- تربيته على إدارة السلطنة:

بعد معركة - سمرقند - التي قام بها السلطان - ألب أرسلان سنة 465هـ وقبل وفاته على أثر جرحه بيد - يوسف الخوارزمي أمر القواد بمبايعة ابنه، ملكشاه، للمرة الثالثة، وعين وزيره النظام وصيًا عليه وطلب احترامهما وطاعة أوامرهما [2]، وكان قد أعدّه إعداداً ملكياً ودربه تدريباً سلطانياً، مثلما أعده أبوه - جغرى بك - من قبل وقد ساعده على ذلك وزيره النظام حيث رغبّه في دراسة العلوم ومرنه على المثابرة والجلد في الحروب، وبهذا تعاون الوالد والوزير معاً على تهيئته لعرش آل سلجوق؛ ولذلك لم يكتف بتدريبه النظري، كما يربى معظم أبناء الملوك وإنما أنزله الميادين وأشركه في القتال حتى مرن على الحرب وعرف خططها وخدعها وكذلك أراد له أن يتعلم أصول الحكم وتدبير شؤون الرعايا بالممارسة وليس عن ظهر قلب فمنحه حكومة - كيلان - وأصدر بذلك منشوراً[3].

2- تولي السلطنة: وبناء على توصية السلطان الراحل فقد اجتمع قواد الجيش، وأعيان الدولة في حلف خطير لإجراء مراسم الجلوس، وبايعوا السلطان " ملكشاه " سنة 465هـ وعمره - حينذاك - ثمانية عشر عاماً، وقال في خطاب العرش، حينما طلب إليه النظام أن يتكلم [4]. فقال: الأكبر منكم أبي، والأوسط أخي والأصغر ابني، وسأفعل معكم ما لم أسبق إليه، فأمسكوا فأعاد القول، فأجابوه بالسمع والطاعة [5]، وهي كلمة تدل على نزعته العادلة وامتثاله الآداب الإسلامية وقد تكون من وضع الوصي عليه " نظام الملك "، كما تولى هو وأبو سعد المتولي أخذ البيعة له من الأمراء والوجهاء وأطلق الأموال عليهم [6]؛ لذلك أجمعت المصادر التاريخية بأن " النظام " لعب دوراً كبيراً في تنصيب السلطان الجديد، كما كان له الفضل الأكبر في إرساء دعائم الدولة وانتصاراتها الحربية[7]، والفكرية والعقائدية على الباطنية والفلاسفة وذلك باهتمامه الكبير بعلماء أهل السنة ونشر

(1) سير أعلام النبلاء (55/19).
(2) المنتظم سنة 465هـ نقلاً عن نظام الملك د. عبد الهادي ص 344.
(3) نظام الملك، عبد الهادي ص 344.
(4) المصدر نفسه ص 345.
(5) البداية والنهاية (38/16).
(6) نظام الملك ص 345.
(7) المصدر نفسه ص 345.

المدارس النظامية في أرجاء الدولة السلجوقية وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله عند الحديث عن المدارس النظامية ودورها في حفظ منهج أهل السنة ودحر المد الباطني.

وقد أثبت السلطان الجديد مقدرة فائقة في الحرب، ورغبة نادرة في الإصلاح والتعمير حتى عده أحد المؤرخين المؤسس الحقيقي للإمبراطورية السلجوقية المترامية الأطراف وذلك بنشاطه وحنكة وزيره[1]، ويعتبر النظام هو الموّجه لسياسة الدولة [2]، فسواء أكان المؤسس لدولة السلاجقة، طغرل بك، أم ألب أرسلان، أم ملكشاه، فإنهم قد تعاونوا على إنشائها وتوطيد دعائمها ثم اتساع رقعتها حتى كان لثالثهم من أقصى بلاد الترك إلى أقصى بلاد اليمن، وقد خطب له من حدود الصين على آخر الشام[3].

3- خروج عمّه والقضاء عليه: لم يتربع ملكشاه على العرش السلجوقي حتى صدقت ظنون أبيه في وصيته، وخرج عليه أعضاء أسرته مطالبين بالعرش، وكان أول هؤلاء وأشدهم بأساً وأقواهم حجة - قاروت ملك كرمان أخو السلطان ألب أرسلان ولم يكن يخفى عليه أن النصر لا يكون له إلاّ إذا كسب الجيش وربح مؤازرته، فاستمال القواد والجنود بزيادة رواتبهم وتحسين حالتهم إذا أتى إلى الحكم فقامت بذلك مظاهرتهم مطالبين بمجيء " قاروت " إلى العرش وأحقيته بالسلطان، وكتب إلى ابن أخيه في نفس الوقت يقول: إني أحقّ منك بالعرش لأني الأخ الأكبر للسلطان الراحل وأنت أصغر أبنائه وسار بجيشه إلى الري [4]، وقد أدرك النظام خطورة هذه الفتنة وشدّتها، وأنها تهدد عرش السلطان ومنصب وزيره وأنها ستقضي عليهما وعلى أهدافه إذا كتب لها النصر فقرر الإسراع بجيشهما نحو الري حتى بلغها قبل وصوله، وأجاب على رسالة عم السلطان: إن الابن أحقّ بالعرش من الأخ [5]، فالتقوا بقرب همذان، فانكسر جمعه، وأتى بعمه أسيراً، فوبّخه، فقال: أمراؤك كاتبوني، وأحضر خريطة فيها كتبهم، فناولها لنظام الملك ليقرأها، فرماها في منقل نار، ففرح الأمراء وبذلوا الطاعة [6]، وأدخل قاروت السجن ولكن ما أدخله في روع الجنود من زيادة رواتبهم لم يزل يدفعهم إلى التظاهر والعصيان، والتهديد بمبايعة الأمير السجين إذا لم تلب طلباتهم، وأحس النظام بحرج الموقف ودقته وأنه لا بد وأن يتخذ رأيا حاسماً لقطع النزاع، فوافق رؤساء الجيش على مشروعية مطالبهم ووعدهم بأن سيحدّث السلطان ويقنعه بتنفيذها، وهدأت الأحوال، وذهب لمقابلة السلطان وأخبره بما انتهى إليه الحال وأشار عليه، كما يذكر معظم المؤرخين - بقتل عمه في الحال فأصدر السلطان أمره وقتل وما إن عاد رؤساء الجيش ليستفسروا عما تمّ بخصوص مطالبهم حتى فأجاهم " النظام " بأنه ما استطاع مفاتحة السلطان بأمرهم حيث وجده حزيناً على فقد عمه الذي امتص السّم من خاتم في أصبعه ومات في السجن، فعادوا واجمين

(1) نظام الملك ص 345.
(2) المصدر نفسه ص 346.
(3) المصدر نفسه ص 346.
(4) المصدر نفسه ص 346.
(5) النجوم الزاهرة نقلاً عن نظام الملك ص 347.
(6) سير أعلام النبلاء (55/19).

خائفين، ولم يستطع أحدهم القيام بحركة مناوأة، واستتبّ الأمن في البلاد [1]، ولم يتخلص السلطان من عمه حتى زحف نحو - سمرقند - وعبر نهر جيحون سنة 467هـ ليأخذ بثأر أبيه من البلاد التي اغتيل فيها، ولكنه لم يصل إليها حتى هرب حاكمها - خاقان البتكين - فتوسط لـه " النظام " وأجيب لذلك [2]. ثم استمرت شفاعات " النظام " تترى على السلطان في طلب الصفح عن الخارجين بعد اعتذارهم، وإعادتهم إلى مقر وظائفهم واتخذ وسيلة جديدة هذه المرة في سياسته الحربية كان فيها رسول سلام ابتداءً من سنة 467هـ إلى 473هـ، حيث خرج على السلطان أخوه - تكش - بعد أن التحق بجيشه الجنود الذين فصلهم من سلك الخدمة العسكرية خلافاً لرأي وزيره " النظام "، وكان بـ " بوشنج " واستولى على مرو الروز الشاهجلمان، فسار السلطان إلى خراسان ودخل نيسابور قبل أن يصلها أخوه ثم التقيا " بترمذ " واصطلحا أيضاً سنة 473هـ.

ثانياً: اهتمامه بالرعية وشيء من عدلـه مواقفه:

1- تفقده للرعية: زار الأقاليم وتفقد أحوال الرعية واحتياجاتهم بنفسه وبنى المخافر في السبل فانتشر الأمن من حدود الصين إلى البحر المتوسط، ومن جورجيا إلى اليمن جنوباً، وقام بجولة من أصبهان إلى الأنبار ومنها إلى الموصل، ثم سار إلى حلب حيث قضى على بعض أمرائها، وكان وزيره النظام يرافقه في جميع سفراته وجولاته وهو الذي يدبرّ الأمور لـه [3]، وكانت دولته صارمة، والطرقات في أيامه آمنة، ومع عظمته يقف للمسكين والمرأة والضعيف فيقضي حوائجهم [4]، وقد عمّر العمارات الهائلة، وبنى القناطر، وأسقط المكوس، والضرائب وحضر الأنهار الكبار الخَرَاب، وبنى مدرسة أبي حنيفة والسوق وبنى الجامع الذي يقال لـه: جامع السلطان ببغداد [5].

2- تشييعه لركب الحجاج العراقي: شيَّعَ مرة ركب العراق إلى العُذيَب [6]، فصاد شيئاً كثيراً، فبنى هناك منارة القرون من حوافر الوحش وقرونها، ووقف يتأمل الحجاج، فرقّ ونزل وسجد، وعفَّر وجهه وبكى، وقال بالعجمية: بلغَّوا سلامي إلى رسول الله ρ، وقولوا: العبد العاصي الآبق أبو الفتح يخدم ويقول: يا نبي الله، لو كنت ممّن يصلح لتلك الحضرة المقدسة، كنت في الصحبة، فضجّ الناس وبكوا، ودعوا لـه [7].

3- مناصرة المظلومين: كانت لملكشاه أفعال حسنة وسيرة صالحة، من ذلك أن فلاحاً أنهى إليه أن غلماناً لـه أخذوا لـه حمل بطيَّخ هو رأس ماله، فقال: اليوم أرُدُّ عليك حملك، ثم قال لِقَّمه: أريد أن تأتوني ببطيخ، ففتشوا، فإذا في خيمة الحاجب بطيخ، فحملوه إليه، فاستدعى الحاجب فقال: من أين لك هذا البطيخ؟ قال: جاء به الغلمان. فقال: أحضرهم. فذهب فهَّربهم، فأرسل إليه، فأحضره وسلمّه

(1) نظام الملك ص 347.
(2) الكامل في التاريخ (265/6).
(3) نظام الملك 348.
(4) البداية والنهاية (130/16).
(5) المصدر نفسه (130/16).
(6) هو ماء بين القادسية والمغثية معجم البلدان (92/4).
(7) سير أعلام النبلاء (56/19).

إلى الفلاح، وقال: خذ بيده، فإنه مملوكي ومملوك أبي، فإياك أن تفارقه، فرّد عليه حمله، فخرج الفلاح يحمله وفي يده الحاجب، فاستفدى نفسه منه بثلاثمائة دينار [1].

4- دعاؤه لله أن ينصر الأصلح للمسلمين: ولما توجَّه لقتال أخيه تكشى، اجتاز بطُوس، فدخل لزيارة قبر عليَّ بن موسى الرَّضا، على زعم بعض المؤرخين ومعه نظام الملك، فلمّا خرَجا قال للنَّظام: بم دعوت؟ قال: دعوت الله أن يظفِّرك على أخيك. فقال: لكنيَّ قلت: اللهمَّ إن كان أخي أصلح للمسلمين فظفرَّه بي، وإن كنت أصلح لهم فظفَّرني به[2]. وقد سار ملكشاه هذا بعسكره من أصبهان إلى أنطاكية فما عرف أنَّ أحداً من جيشه ظلم أحداً من رعيَّتهِ [3].

5- الستر على أعراض المسلمين: استعدى إليه تركماني أن رجلاً افتضَّ بكارة ابنته، وهو يريد أن يمكنه من قتله، فقال له: يا هذا إن ابنتك لو شاءت ما مكَّنته من نفسها، فإن كنت لابد فاعِلاً فاقتلها معه، فسكت الرجل، ثم قال الملك: أو خير من ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: فإنَّ بكارتها قد ذهبت، فزوَّجها من ذلك الرجل وأمهرها من بيت المال كفايتها، ففعل [4].

6- واعظ مع ملكشاه: وحكى له بعض الوعّاظ أنَّ كسرى اجتاز يوماً في بعض أسفاره بقرية منفرداً من جيشه، فوقف على باب دار فاستسقى، فأخرجت إليه جارية إناء فيه ماء قصب السُّكر بالثلج فشرب منه فأعجبه، فقال: كيف تصنعين هذا؟ فقال: إنَّه سهل علينا اعتصاره على أيدينا، فطلب منها شربة أخرى، فذهبت لتأتيه بها فوقع في نفسه أن يأخذ هذا المكان منهم ويُعَوَّضهم عنه، فأبطأت عليه ثم خرجت وليس معها شيء فقال: ما لك؟ فقالت: كأن نيّة سُلطاننا تغيَّرت علينا، فتعسَّر عليَّ اعتصاره - وهي لا تعرف أنَه السلطان - فقال: ذهبي فإنك الآن تقدرين، وغير نيتَّهَ إلى غيرها، فذهبت، وجاءته بشربة أخرى سريعاً فشربها وانصرف. فقال له ملكشاه: هذه تصلح لي، ولكن قُصِّي على الرعيَّة حكاية كسرى الأخرى حين اجتاز ببُستان، فطلب من ناطوره، عنقوداً من حصرم، فإنه قد أصابته صفراء، وعطش. فقال له الناطور: إنَّ السلطان لم يأخذ حقه منه، فلا أقدر أن أعطيك منه شيئاً. قال: فعجب الناس من ذكاء الملك وحسن استحضاره هذه في مقابلة تلك[5].

7- إقامة العدل على الأمراء: واستعداه رجلان من الفلاَّحين على الأمير خُمارتيكين أنه أخذ منهما مالاً جزيلاً وكسر ثَنِيَّتَهما وقالاً: سمعنا بعدلك في العالم، فإن أقدتنا منه كما أمرك الله وإلا استعدينا عليك الله يوم القيامة، وأخذا بركابه، فنزل عن فرسه وقال لهما: خُذا بكُمَّي فاسْحبَاني إلى دار نظام الملك، فهابا ذلك، فعزم عليهما، ففعلا ما أمرهما به، فلّما علم النظام مجيء السلطان إليه خرج مسرعاً من خيمته، فقال له الملك: إنَّي قلدتك الأمر لتُنصف المظلوم ممَّن ظلمه، فكتب من فوره بعزل خُمارتيكين وحلَّ أقطاعه وأن يرد إليهما أموالهما وأن يقلعا ثنيَّتيه إن قامت عليه البيِّنة،

(1) البداية والنهاية (131/16).
(2) البداية والنهاية (131/16).
(3) المصدر نفسه (131/16).
(4) المصدر نفسه ص(131/16).
(5) البداية والنهاية 132/016).

وأمر لهما الملك من عنده بمائة دينار[1].

8- المال مال الله والعباد عبيده: أسقط مرّة بعض المكوس، فقال رجل من المستوفين: يا سلطان العالم إن هذا يعدل ستَّمائة ألف دينار وأكثر. فقال : ويحك، إن المال مال الله، والعباد عبيده، والبلاد بلاده، وإنَّما يبقى هذا لي من نازعني في هذا ضربت عنقه[2].

9- إني أغار على هذا الوجه الجميل من النار: غنَّته امرأة حسناء فَطرِب وتاقت نفسه إليها، فهّم بها، فقالت: أيها الملك، إنَّي أغار على هذا الوجه الجميل من النار وبين الحلال والحرام كلمة واحدة، فاستدعى بالقاضي فزوجه بها [3].

10- أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل: كان نظام الملك يهتم بالعلماء والزهاد والمدارس العلمية وينفق عليها الأموال الضخمة تنفق على الأساتذة والطلاب جميعاً، فسعى بالوشاية إلى السلطان ملكشاه خصومه وقالوا له: إن النظام ينفق في كل سنة على الفقهاء والصوفية والقراء ثلاثمائة ألف دينار [4]، ولو صرف هذا المال على جيش لرفع رايته على أسوار القسطنطينية، فاستجوب السلطان وزيره فقال له: يا بني أنا شيخ أعجمي لو نودي عليّ لما زادت قيمتي على ثلاثة دنانير، وأنت تركي لذلك تبلغ المائة دينار، وقد أنعم الله عليك وعليّ بواسطتك ما لم يعطه أحداً من خلقه، أفلا تعوضه عن ذلك في حملة دينه وحفظة كتابه بثلاثمائة ألف دينار.. ثم إنك تنفق على الجيوش المحاربة في كل سنة أضعاف هذا المال مع أن أقواهم وأرماهم لا تبلغ رميته ميلاً، ولا يضرب سيفه إلا ما قرب منه، وأنا أقمت لك بهذا المال جيشاً يسمى - جيش الليل - قام بالدعاء إذا نامت جيوشك، فمّدوا إلى الله أكفهم وأرسلوا دموعهم فتصل من دعائهم سهام [5]، على العرش لا يحجبها شيء عن الله، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون وبدعائهم تثبتون وببركاتهم ترزقون[6].. فبكى السلطان وقال: شا باشى يا أبت شاباش بالتركي ومعناه بالعربي: استكثره من هذا الجيش [7].

11- زواج الخليفة المقتدي بابنة ملكشاه: تزوج الخليفة المقتدي بابنته بسفارة شيخ الشافعية أبي إسحاق، وكان عرسها في سنة 480هـ وعملت دعوة بجيش السلطان ما سُمع بمثلها أبداً، فمما دخل فيها أربعون ألف مَنًّا سكراً، فولدت له جعفراً [8]، وكان ملكشاه يريد أن يجعل الخلافة العباسية تتحول إلى من أمه ابنته، كما زوج ابنته الأخرى إلى المستظهر العباسي ولم يتمكن من حصر الخلافة والسلطنة في شخص حفيده[9].

---

(1) المصدر نفسه(132/16).
(2) المصدر نفسه (132/16).
(3) المصدر نفسه (133/16).
(4) في سراج الملوك للطرطوشي ستمائة ألف دينار ص 227.
(5) نظام الملك ص 651.
(6) الحقيقة في نظر الغزالي د. سلمان دينا ص 16.
(7) نظام الملك ص 261، أخبار الدولة السلجوقية ص 66، 67.
(8) سير أعلام النبلاء (57/19).
(9) السلاطين في المشرق العربي ص30، الدولة العثمانية للصَّلابِّي ص 92.

12- وصف جهاز ابنـة السلطان ملكشاه وزفافها: في المحرم نُقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجلّلة بالديباج الرومي، وكان أكثر الأحمال الذهب والفضة وثلاث عمّاريات، وعلى أربعة وسبعين بغلاً مجلَّلة بأنواع الديباج الملكّي، وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقاً من فضة لا يقدر ما فيه من الجواهر والحليّ، وبين يدي البغال ثلاثة وثلاثون فرساً من الخيل الرائقة، عليها مراكب الذهب مرصَّعة بأنواع الجواهر، ومهد عظيم كثير الذهب، وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة كوهرائين، والأمير برسق، وغيرهما، ونثر أهل نهر مُعلىّ عليهم الدنانير والثياب، وكان السلطان قد خرج عن بغداد متصيّداً، ثم أرسل الخليفة الوزير أبا شجاع إلى تركان خاتون، زوجة السلطان، وبين يديه نحو ثلاثمائة موكبيّة، ومثلها مشاعل، ولم يبق في الحريم دكّان إلا وقد أشعل فيها الشمعة والاثنتان والأكثر من ذلك وأرسل الخليفة مع ظفر خادمة محفة لم يُر مثلها حُسناً وقال الوزير لتركان خاتون: سيّدنا ومولانا أمير المؤمنين يقول: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وقد أذن في نقل الوديعة إلى داره، فأجابت بالسمع والطاعة، وحضر نظام الملك ومن دونه من أعيان دولة السلطان وكل منهم معه من الشمع والمشاعل الكثير، وجاء نساء الأمراء الكبار ومن دونهم كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وتجمّلها وبين أيديهن الشمع الموكبيات والمشاعل يحمل ذلك جميعه الفرسان ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان، بعد الجميع في محفة مجللة، عليها من الذهب والجواهر أكثر شيء وقد أحاط بالمحفّة مائتا جارية من الأتراك بالمراكب العجيبة وسارت إلى دار الخلافة وكانت ليلة مشهودة لم يُر ببغداد مثلها [1].

ثالثاً: الاستقرار السلجوقي في بلاد الشام:

بذل السلاجقة جهوداً كبيرة للسيطرة على بلاد الشام، وبعد أن ثبَّت ملكشاه أقدامه في الحكم واطمأن على سلطنته التفت إلى بلاد الشام، وأحيا مشروع أبيه السلطان ألب أرسلان بغزو هذه البلاد وضم مصر إليها والقضاء على الدولة الفاطمية، فاختار أن يولي على هذه الجبهة البعيدة أميراً سلجوقياً ويشغله في نفس الوقت عن التفكير بالشغب عليه أو منافسته، ويؤمَّن الإقطاع لقسم كبير من الجيش السلجوقي المتزايد، وكان تتش قد اختص بمجموعة من المماليك الذين يتولون تربيته وتدريبه وشنّ الحملات باسمه والدفاع عنه، على عادة السلاجقة؛ لأنه كان لا يزال فتى، وسرعان ما انتشرت الأخبار بما عزم السلطان عليه وبلغت مسامع أتسز الخوارزمي صاحب بلاد الشام، فكتب للسلطان يشرح له ما بذله من جهد في خدمة الدولة السلجوقية، وأنه ما يزال الخادم المطيع، ووعده بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار في السنة مقابل إبقائه حاكماً على بلاد الشام [2]، وأصرّ ملكشاه على تنفيذ مشروعه فولى أخاه تاج الدولة تتش حكم بلاد الشام وما يفتحه في تلك النواحي، كما أشرنا، وأمره بالمسير إليها، وكتب إلى القوى المتمركزة في إقليم الجزيرة وبلاد الشام بالانضمام إليه ومساعدته كان من بينهم مسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل ووثاب بن محمود، وزعماء القوى التركية، غير أن هذه

(1) الكامل في التاريخ (308/6، 309).

(2) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص 125.

النجدة لم تصل إلى حلب وتشتت قبل ذلك، حيث قضى عليها سابق حاكم حلب بالتعاون مع مسلم بن قريش في وادي بزاعة، فتحرّج موقف تُتُش نتيجة ذلك، وما إن ابتعدت قواته عن أسوار حلب وهي تطارد البدو حتى خرجت القوات الحلبية من وراء الأسوار وهاجمت معسكراته وغنمت ما كان فيها[1]، ويبدو أنه لم يحقق أي نجاح في مطاردته للعرب، عندما علم بنهب معسكراته، قرّر عبور الفرات للانتقام من مسلم بن قريش، ولكن هذا الأخير كان يقظاً، فاضطر مكرها إلى التخليَّ عن خطته وذهب إلى ديار بكر حيث أمضى فصل الشتاء في مضارب بني مروان[2]، وهكذا تفّرق التحالف الذي أنشأه السلطان ملكشاه، وأخفق أمام أسوار حلب وكتب تُتُش من مشتاه إلى أخيه يشرح له ما آلت إليه الأوضاع في شمالي بلاد الشام ويطلب منه نجدة أخرى، ثم غادر مع قواته الجديدة التي وصلت إليه متوجها إلى حلب للاستيلاء عليها إلا أنه فشل وغادر وقواته المنهكة مدينة حلب بعد أن أدرك عدم جدوى الاستمرار في الحصار والاستيلاء على حلب، فيَّمّ وجهه نحو دمشق [3].

1- الاستيلاء على دمشق: غادر تُتُش وقواته المنهكة مدينة حلب وفي نفسه شيء منها متوجهاً نحو الجنوب، فاستولى على حماة والمعرَّة وما جاورهما وأطاعه أمير حمص خلف بن ملاعب، فأقرّه على حكمها وإذا كان التوغل السلجوقي في بلاد الشام قد بدأ بوصول تُتُش، إلا أنه لم يحقق حتى ذلك الوقت أي إنجاز يذكر، وتبين من خلال أعماله أنه كان عسوف ذا سطوة، وجبروت وظلم وتدمير وسلب ونهب [4]، وقد سنحت له الفرصة ليضع يده على مقدرات بلاد الشام ويؤسس دولة سلجوقية في ربوعها وكان لذلك علاقة بالمحاولات الفاطمية الهادفة إلى استعادة نفوذ الفاطميين في هذه البلاد، فقد حدث أن أرسل بدر الجمالي جيشاً فاطمياً بقيادة ناصر الدولة الجيوشي إلى بلاد الشام لإعادة بسط السيادة الفاطمية عليها فحاصر دمشق عام 471هـ واستولى على أعمالها وأعمال فلسطين[5]، وأدرك أتسز أنه لا قبل له بهذا الجيش الكبير فاضطر أن يطلب المساعدة من تُتُش، ووعده بتسليمه دمشق ويكون تابعاً له [6]، وكان هذا هو الحل الوحيد أمامه، وهو أن يضع نفسه تحت الحماية المباشرة للسلاجقة العظام [7]، رحب تُتُش بهذه الدعوة، وكان ينوي متابعة زحفه إلى دمشق بعد فشله أمام حلب، وسار قاصداً المدينة لنجدتها ولم يكن يقترب منها حتى فكَّ ناصر الدولة الجيوشي الحصار عنها وانسحب باتجاه الجنوب؛ لأن قواته كانت عاجزةً عن أن تقف في وجه القوة السلجوقية، وبخاصة أن طرابلس وصور امتنعتا عن تقديم المساعدة له، بل إن حكامهما صانعا السلاجقة بالهدايا والملاطفات [8]، وعندما وصل تُتش إلى مرج عذراء الواقع إلى الشمال الشرقي

(1) المصدر نفسه ص 128.
(2) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص 128.
(3) المصدر نفسه ص 128.
(4) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص 129.
(5) تاريخ دمشق لابن القلانسي ص 183.
(6) المصدر نفسه ص 183.
(7) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص 129.
(8) تاريخ دمشق لابن القلانسي ص 182.

من دمشق استقبله أتسز، فبذل لـه الطاعة وسلمه البلد وبعد أن أقام بضعة أيام في مرج عذراء توجّـه إلى المدينة، فاستقبله أتسز عند أسوارها ولم يذهب أبعد من ذلك للقائه، فاغتظ منه تُتُش وعاتبـه علـى ذلك، فاعتذر بأمور لم يقبلها[1]، ويبدو أن تُتُش خشي من طموحات أتسز، ولم يطمئن إلى وجوده إلـى جانبه، فاتخذ من ذلك حجة وتخلَّص منه، كما قتل أخاه جاولي وتسلم دمشق دون قتـال، وأسـس لنفسـه ولأسرته حكماً فيها[2]، وبذلك أضحى تتش يسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام، وجهد بعد ذلك للعمل على: بسط سلطاته على كامل بلاد الشام وبخاصة المدن الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للدولة الفاطمية أو تُحكم من قبلها مباشرةً إنشاء دولـة أخرى للسلاجقة في هذه البلاد يتولى حكمها بمعزل عن السلاجقة العظام في خراسان وفارس [3].

2- زوال الإمارة المرداسية وقيام الإمارة العقيلية في حلب: ضاق الأمر كثيراً بأهل حلب تحت حكم سابق بن محمود المرداسي، فراسلوا مسلم بن قريش ليخلصهم مما هم فيه, فسار إليهم سنة 472هـ، فأغلق سابق أبواب حلب في وجهه ومعه بداخل حلب الشريف أبو علي الحسين بن هبة الله الهاشمي العباسي المعروف بالحتيتي [4] فخرج ابن لـه من داخل حلب إلـى الصيد فقبض ابن قريش عليه وجعله رهينة بيده كي تستسلم لـه المدينـة، فاستسلمت لـه فعلاً ودخلها هي والقلعة بسلام [5]، ويقول ابن الجوزي: إن سابق بن محمود هو الذي أوحى لمسلم بن قريش بالقدوم إليه لتسليمه المدينـة ومما قاله لـه: أنت أولى بي من الغير والعربية تجمعنا فإن كنت مأكولاً فكن أنت آكلي.. وسار مسلم بن قريش إلى حلب فوصلها ثاني عشر من ذي الحجة ومعه بنو كلاب وكلب ونمير وجميع القبائل وقد أطاعوه خوفاً من الغز وأنفق عليهم الأموال فكسر الأحداث [6] الأبواب يوم الجمعة لعشر بقين من ذي الحجة ودخل أصحابه إليها ولم يتأذَّ أحد من أهلها، ولا أغلق فيها وكان راسل سابق بن محمود وهو في القلعة مراسلة انتهت إلى أن يزوجه سابق بابنته ويعوضه مالاً على أن يسلم القلعة فرضي وحط سابق رحله وماله في البلد ولم يبق إلا أن ينزل فوثب أخوه شبيب ووثاب فقبضا عليه واستوليا على القلعة، فجمع مسلم مقدمي بني كلاب وقال: علمتم أني أنفقت أموالاً وبعدت عن بلادي في حراسة بلادكم وأموالكم وكفّ عادية الغز عنكم، وهذه مقابلة ما أعرفها فإن كنتم رجعتم فهاأنذا راجع بلادي ومبرئ منكم فأنكروا ما جرى وشرطوا السعي فيه وإزالة ما تجدد منه، فدخل حلب واستقامت لـه [7]. والذي يتضح أن أوضاع حلب تردَّت كثيراً بسبب ما تعرضت لـه من حصار ومنازعات بين السلاجقة وغيرهم من الأمراء العرب مما جعل سابق بن محمود يوصي إلى مسلم بن

(1) الكامل في التاريخ (471/6).
(2) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص 129.
(3) المصدر نفسه ص 130.
(4) زبدة حلب (67/2، 68).
(5) المنتظم (323/8).
(6) منتظمة الأحداث تتولى المحافظة على مصالح السكان في المدينة وعلى النظام العام وحماية الأسوار والأبواب ومساعدة الجيوش النظامية.
(7) مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي / 202، 203.

قريش العقيلي كي يأتي إليه ليسلمه المدينة، أما الرواية التي تقدمت بأن مسلم بن قريش جاء وحاصر حلب ولم تستسلم لـه في بادئ الأمر لامتناع سابق عليه، فإنه يمكن القول بأنه كان متردداً في ذلك وقد أوصى لمسلم بن قريش عندما كان السلاجقة يهددونه، وعندما جاء مسلم بن قريش وزال الخطر تراجع عن التسليم إليه، ثم وجد أن لا مناص فتنازل لـه عن حلب، وانتهى الأمر على ذلك بالرغم من معارضة أخويه وثاب وشبيب[1]، وقد أرسل شرف الدولة مسلم بن قريش إلى السلطان السلجوقي ملكشاه يخبره بما فعل وطلب منه إقراره على حلب وتعهد أن يرسل في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار فأقره السلطان [2]، وهكذا تبدو سياسة الأمير العقيلي مسلم بن قريش، سياسة تنبع من المصلحة الشخصية والتي كانت قائمة على سياسة المد والجزر، فهو يلاين السلطان ويسايره، ويعده بالولاء والطاعة وإرسال الأموال، وفي نفس الوقت يعمل على تقليص النفوذ السلجوقي من الشام والجزيرة، ليبني لـه زعامة مستقلة عن حكمهم، والآن وقد انقسمت الشام على إمارتين كبيرتين إحداهما في الجنوب ومقرها دمشق لتتش ابن السلطان ألب أرسلان وثانيتهما في الشمال ومقرها حلب لمسلم بن قريش العقيلي، فما هي العلاقة التي قامت بين هاتين الإمارتين والتي كل منهما تَدَّعى الولاء والطاعة لبني سلجوق [3].

3- علاقة مسلم بن قريش مع تتش بن السلطان ألب أرسلان في الشام: بدأت أعمال التوتر والاستفزاز تظهر بينهما، كما بدأ كل واحد منهما يوسع من دائرة أحلافه وأنصاره استعداداً للمعركة الفاصلة [4]وقام مسلم بن قريش بمهاجمة حمص سنة 475هـ، وكان يليها خلف بن ملاعب، مطيعاً لتتش السلجوقي، فكتب إليه: إن هذا صاحبي ومنتمي إليَّ فارحل عنه. فبعث مسلم إليه: إن هذا رجل مفسد في أعمال السلطان، قاطع سبلها، فإن كان صاحباً لك فخذه إليك. فسار تتش لنجدته، فخاف ابن قريش عتب السلطان ملكشاه في مقاتلة أخيه تتش، فانسحب عنه، وفي طريقه قبض على ما يقرب من ثلاثمائة فارس من التركمان وفرقهم في القلاع، فكان آخر العهد بهم [5].

4- حملة مسلم بن عقيل على دمشق سنة 475هـ: وردت كتب في هذه السنة من بعض أمراء العرب إلى مسلم بن قريش يحثونه فيها على ضرورة تخليص بلاد الشام مما هي فيه وكان عندئذ مقيماً في الجزيرة [6]، وتصادف مع ذلك خروج تتش من دمشق إلى نواحي أنطاكية [7]، فانتهز ابن قريش هذه الفرصة وجمع عساكره من العرب والأكراد وأسرع بهم نحو دمشق ليأخذها من السلاجقة، ثم اتصل بالفاطميين طالباً العون منهم[8]، غير أن هذه الحملة فشلت وارتد مسلم بن

(1) سلاجقة الشام والجزيرة، د. أرشيد يوسف ص 80.
(2) تاريخ دولة آل سلجوق ص 72.
(3) سلاجقة الشام والجزيرة ص 81.
(4) المصدر نفسه نقلاً عن الكامل في التاريخ ص 81.
(5) سلاجقة الشام والجزيرة، أرشيد يوسف ص 81.
(6) زبدة حلب (79/2).
(7) النجوم الزاهدة (115/5) سلاجقة الروم والجزيرة ص 81.
(8) المصدر نفسه (115/5) سلاجقة الروم والجزيرة ص 81.

قريش عائداً عنها إلى الجزيرة، وقد ذكر المؤرخون أن أسباب فشله يعود إلى جملة أسباب منها؛ أن الفاطميين تقاعسوا عن نصرته، ثم عاد تتش مسرعاً عندما علم بحملته، كما عصى أهل حران عليه في الجزيرة مما أجبره على العودة إليها [1].

5- مقتل شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي سنة 478هـ: استولى سليمان بن قتلمش السلجوقي على أنطاكية من الروم سنة 478هـ بعد أن كانت بيدهم منُذ سنة 358هـ، فلما ملكها سليمان أرسل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش يطلب منه ما كان يحمله إليه الفردوس من المال، ويخوّفه معصية السلطان، فأجابه: أما طاعة السلطان، فهي شعاري، ودثاري، والخطبة له، والسكّة في بلادي، وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعادته من هذا البلد، وأعمال الكفّار [2]، وأمّا المال الذي كان يحمله صاحب أنطاكية قبلي، فهو كان كافراً، وكان يحمل جزية رأسه وأصحابه، وأنا بحمد الله مؤمن، ولا أحمل شيئاً، فنهب شرف الدولة بلد أنطاكية، فنهب سليمان أيضاً بلد حلب، فلقيه أهل السواد يشكون إليه نهب عسكره فقال: أنا كنت أشّد كراهية لما يجري، ولكّن صاحبكم أحوجني إلى ما فعلت، ولم تجر عادتي بنهب مال مسلم، ولا أخذ ما حرمته الشريعة، وأمر أصحابه بإعادة ما أخذوه منهم فأعاده، ثم إن شرف الدولة جمع الجموع من العرب والتركمان، وكان ممن معه جبق أمير التركمان في أصحابه وسار على أنطاكية ليحاصرها، فلما سمع سليمان الخبر جمع عساكره، وسار إليه فالتقيا في الرابع والعشرين في صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة في طرف من أعمال أنطاكية واقتتلوا، فمال تركمان جبق إلى سليمان، فانهزمت العرب، وتبعهم شرف الدولة منهزماً، فقُتل بعد أن صبر، وقُتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب، وكان يوم قتل في يده ديار ربيعة ومضر من أرض الجزيرة والموصل وحلب، وما كان لأبيه وعمّه قرواش، وكان الأمن في بلاده عامٌّ، والرخص شامل وكان يسوس بلاده سياسة عظيمة، بحيث يسير الراكب والراكبان فلا يخافان شيئاً، وكان له في كل بلد وقرية عامل، وقاضٍ، وصاحب خبر، بحيث لا يتعدى أحد على أحد، ولما قتل قصد بنو عقيل أخاه إبراهيم بن قريش وهو محبوس، فأخرجوه وملكوه أمرهم [3]، وتزوج صفية خاتون عمة السلطان ملكشاه (زوجة مسلم أخيه سابقاً) غير أن السلطان ملكشاه لم يعترف بهذه الزعامة، فأمر إبراهيم بن قريش القدوم عليه بأصفهان، فقبض عليه وسجنه وأرسل مكانه على بني عقيل، أبا عبد الله محمد بن مسلم بن قريش وأقطعه الرحبة وحرّان والرقة وسروج في الجزيرة، ثم زوجه بأخته زليخة خاتون سنة479هـ [4].

6- النـزاع بين تتش وسليمان بن قتلمش: انسحب سليمان بن قتلمش إلى أنطاكية بعد المعركة التي قتل فيها مسلم بن قريش وأرسل إلى ابن الحتيتي " القائم بأعمال حلب بعد ابن قريش " يطلب منه طاعته والتبعية له فرد عليه يماطله ويعتذر حتى يكاتب السلطان السلجوقي في هذا الأمر،

(1) خطط الشام (266/1، 267) سلاجقة الروم والجزيرة ص 82.
(2) الكامل في التاريخ (294/6).
(3) الكامل في التاريخ (394/6، 295).
(4) سلاجقة الشام والجزيرة ص 83.

وفي نفس الوقت قام ابن الحتيتي بمراسلة تتش للقدوم إليه لتسليمه المدينة [1]، اتجه كل من سليمان بن قتلمش وتتش إلى حلب طمعاً فيها، فالتقت عساكرهما في شهر صفر 479هن فانهزم أصحاب سليمان وثبت هو في القلب، فلما رأى انهزام عساكره أخرج سكيناً معه فقتل نفسه وقيل: بل قتل في المعركة، واستولى تتش على عسكره وكان سليمان بن قُتلمش في السنة الماضية في صفر قد أنفذ جثة شرف الدولة إلى حلب على بغل ملفوف في إزار وطلب من أهلها أن يسلِّموها إليه، وفي هذه السنة في صفر أرسل تُتُش جثة سليمان في إزار يسلِّموها إليه، فأجابه ابن الحتيتي أنه يكاتب السلطان، ومهما أمره فعل، فحاصر تُتش البلد، وأقام عليه، وضيق على أهله، وكان ابن الحُتيتي قد سلم كل برج من أبراجها إلى رجل من أعيان البلد ليحفظه، وسلم برجاً فيها إلى إنسان يعرف بابن الرعوي. ثم إن ابن الحتيتي أوحشه بكلام أغلظ له فيه، وكان هذا الرجل شديد القوَّة، ورأى ما الناس فيه من الشدة، فدعاه ذلك إلى أن أرسل على تتش يستدعيه، وواعده ليلة يرفع الرجال إلى السور في الجبال، فأتى تُتش للميعاد الذي ذكره، فأصعد الرجال في الحبال والسلاليم، وملك تُتش المدينة، واستجار ابن الحُتيتّي بالأمير فشفع فيه وأمَّا القلعة، فكان بها سالم بن مالك بن بدران، وهو ابن عم شرف الدولة مسلم بن قريش، فأقام تُتُش يحاصر القلعة سبعة عشر يوماً، فبلغه الخبر بوصول مقدمة أخيه السلطان ملكشاه، فرحل عنها [2].

7- السلطان ملكشاه يتسلم حلب: كان ابن الحُتيتي قد كاتب السلطان ملكشاه يستدعيه ليسلم إليه حلب، لمّا خاف تاج الدولة تُتُش، فسار إليه من أصبهان في جمادى الآخرة، وجعل على مقدمته الأمير برسق، يوزن وغيرهما من الأمراء، وجعل طريقه على الموصل، فوصلها في رجب وسار منها فلمّا وصل إلى حران سلمها إليها ابن الشاطر، فأقطعها السلطان لمحمد بن شرف الدولة، وسار إلى الرُّها، وهي بيد الروم فحصرها وملكها، وكانوا قد اشتروها من ابن عطير، وسار إلى قلعة جعبر، فحاصرها يوماً وليلة وملكها، وقتل من بها بني قشير، وأخذ جعبر من صاحبها[3]وهو شيخ أعمى، وولدين له، وكانت الأذية بهم عظيمة يقطعون الطرق ويلجأون إليها، ثم عبر الفرات إلى المدينة حلب، فملك في طريقه مدينة منيح، فلمّا قارب حلب رحل عنها أخوه تُتش، وكان قد ملك المدينة، كما ذكرناه، وسار عنها يسلك البرية، ومعه الأمير أُرتق، فأشار بكبس عسكر السلطان، وقال: إنَّهم قد وصلوا وبهم وبدوابّهم من التعب ما ليس عندهم معه امتناع؛ ولو فعل لظفر بهم. فقال تتش: لا أكسر جاه أخي الذي أنا مستظل بظّله، فإنّه يعود بالوهن عليّ أوّلاً. وسار إلى دمشق، ولمّا وصل السلطان إلى حلب تسلمّ المدينة، وسلَّم سالم بن مالك القلعة على أن يعّوضه عنها قلعة جعبر، وكان سالم قد امتنع بها أوّلاً، فأمر السلطان أن يُرمى إليه رشقاً واحداً بالسهام، فرمى الجيش، فكادت الشمس تحتجب لكثرة السهام، فصانع عنها بقلعة جعبر وسلمّها، وسلمَّ السلطان إليه قلعة جعبر، فبقيت بيده وبيد أولاده إلى أن أخذها منهم نور الدين محمود زنكي، على ما نذكره إن شاء الله تعالى،

(1) سلاجقة الشام والجزيرة ص 83.
(2) الكامل في التاريخ (300/6).
(3) المصدر نفسه ص (300/6).

وأرسل إليه الأمير نصر بن علي بن منقذ الكنانيُّ، صاحب شَيزر، فدخل في طاعته، وسلمَّ إليه اللاَّذقية، وكفر طاب، وأفامية، فأجابه إلى المسالمة، وترك قصده، وأقرَّ عليه شَيزر، ولمَّا ملك السلطان حلب سلَّمها إلى قسيم الدولة آقسنقر، فعمرها، وأحسن السيرة فيها، وأمّا ابن الحتيتي فإنّه كان واثقاً بإحسان السلطان ونظام الملك إليه؛ لأنّه استدعاهما، فلمَّا ملك السلطان البلد وطلب أهلها أن يعفيهم من ابن الحُتَيْتي، فأجابهم إلى ذلك، واستصحبه معه، وأرسله إلى ديار بكر، فافتقر، وتوفي بها على حال شديدة من الفقر وقتل ولده بأنطاكية؛ قتله الفرنج لما ملكوها[1].

رابعاً: تأسيس سلطنة سلاجقة الروم: 470هـ - 479هـ:

أتاحت معركة ملاذكرد 463هـ للسلاجقة الانسياب إلى جوف آسيا الصغرى، وشجعتهم النزاعات والحروب الداخلية التي نشبت بين البيزنطيين على الاستقرار في ربوعها، وتأسيس سلطنة عُرفت في التاريخ باسم " سلطنة سلاجقة الروم " أسَّسها سليمان بن قتلمش الذي يعد بحق جد سلاطين آسيا الصغرى.

أخذ سليمان على عاتقة إدارة شؤون المنطقة الشمالية الغربية بعد رحيل ألب أرسلان عن آسيا الصغرى، وعزم على أن يقيم لنفسه سلطنة في قونية وآقسرا وغيرها من المدن التي كانت تحت حكم قُتلمش، ويتولى حكمها مع الاعتراف بسيادة ملكشاه سلطان السلاجقة العظام الذي خلف أباه ألب أرسلان وكان الأول قد عهد إليه بإدارة المنطقة لصالح الأتراك[2]، وقد ساعد سليمان في تحقيق غايته عاملان:

أ- التغير الديمغرافي الناتج عن الفتوح: إذ أضحت المناطق الشمالية والشرقية شبه خالية بعد أن هجرها سكانها، ذلك أن القبائل التركية التي ساندت سليمان في فتوحه، كانت تطوق أرجاء الأناضول تلتمس الماء والكلأ، فاضطر السكان إلى مغادرة قراهم ومزارعهم إلى مناطق أكثر أمناً فدخل إليها السلاجقة واستقروا فيها وغيرَّوا معالمها.

ب- الأوضاع البيزنطية المضطربة: استفاد السلاجقة خلال الأعوام التي انقضت بعد ملاذكرد من الأوضاع المضطربة داخل الأجهزة البيزنطية، وراحوا يتدخلون في الشؤون الداخلية لأطراف النزاع وظهروا، كحلفاء ومساعدين لبعضهم، مما يسَّر لهم التوغل بعيداً حتى وصلوا إلى المقاطعات الغربية في آسيا الصغرى[3].

وقد ازدادت الفوضى في بلاد الأناضول نتيجة استمرار الانتفاضات على الحكومة المركزية، بالإضافة إلى التوسع السلجوقي، وفقدت الدولة البيزنطية سيطرتها على المنطقة، وتعطلت طرق المواصلات بفعل تدمير البدو لها، ولم يكن ثمة سياسة بيزنطية مدروسة، ويبدوا أن ما جرى من استخدام القوات التركية هيَّأ للسلاجقة الاستقرار والإقامة في غربي آسيا الصغرى، واعترف الأتراك

(1) الكامل في التاريخ 301/06).
(2) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 53، 54.
(3) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا ص 56.

بسليمان زعيماً، ولم تكد تنتهي سنة 471هـ إلا وكانت حامية نيقية السلجوقية قد أعلنت العصيان على نقفور الثالث الذي أقامها في هذه المدينة، وبذلك فقدت الإمبراطورية البيزنطية أهم مدنها بعد أن سيطر عليها السلاجقة، وكان السلطان ملكشاه يراقب تحركات سليمان ونشاطه في آسيا الصغرى عن بعد، ورأى أن يعينه حاكماً على سلاجقة الروم بعد أن ضمَّ إليه قونية وآقسرا وقيصرية وتوابعها[1]، وفي الحقيقة استطاع سليمان أن يضع أساس سلطنة سلاجقة الروم [2]، وأن يجعل من مدينة نيقية عاصمة لها[3].

خامساً: الحسن بن الصباح والدعوة النزارية الإسماعيلية الحشيشية :

نشأت الدعوة الإسماعيلية النزارية بصورة خاصة في المشرق الإسلامي، وكان أنصارها يعرفون كذلك بالباطنية والحشيشية أو الحشاشين، وتعود جذور الدعوة النزارية إلى سنة 478هـ حين توفي الخليفة الفاطمي المستنصر دون أن يبايع لابنه الأكبر نزار رغم أنه أبدى رغبته في ذلك في أواخر أيامه إلا أن الحاشية وعلى رأسها أمير الجيوش الوزير بدر الجمالي حالت دون ذلك، وقد بويع بعد وفاة المستنصر ابنه الأصغر المستعلي بالله وبذلك انشقت الدعوة الإسماعيلية إلى شقين النزارية والمستعلية وكان الحسن بن الصباح الحميري قد نشأ بالري في بلاد فارس، وتأثر في شبابه بالدعوة الإسماعيلية الفاطمية وزار مصر والتقى بالمستنصر[4]. وظل الحسن بن الصباح مقيماً في مصر زهاء ثمانية عشر شهراً، كان خلالها موضع حفاوة المستنصر، فأمدَّه بالأموال، وأمره بأن يدعو الناس إلى إمامته في بلاد العجم[5]، وكان الحسن بن الصباح يرى أن تولية نزار تتفق مع التعاليم الإسماعيلية التي تشترط في الإمام أن يكون أكبر أبناء أبيه [6]، ولا شك بأن إقامة الحسن بن الصباح في مصر أتاحت له التعرُّف على أحوال الدولة الفاطمية، وما آلت إليه الدعوة الإسماعيلية في ظل سيطرة بدر الجمالي، وقد عزم على إقامة الدعوة للمستنصر في فارس وخراسان وحرص على تكوين مجتمع إسماعيلي [7] صرف، وحين عاد إلى بلاد فارس بدأ بنشر دعوته إلى نزار رافضاً البيعة للمستعلي معتبراً نفسه نائب الإمام مخططاً لإنشاء دولة إسماعيلية جديدة في المشرق الإسلامي [8].

1- السيطرة على قلعة الموت عام 483هـ: اتصل الحسن بن الصباح ببلاط السلاجقة - قبل ذهابه لمصر - مع نظام الملك لدى السلطان ملكشاه، ثم هرب من الري، بسبب نشاطه في الدعوة الإسماعيلية أو إيوائه لمجموعة من دعاة الفاطميين وخرج إلى مصر تلبية لطلب الداعي الكبير: عبد

(1) المصدر نفسه ص 56.
(2) المصدر نفسه ص 57.
(3) تاريخ سلاجقة بلاد الشام ص 139.
(4) الخلافة العباسية، فاروق فوزي (188/2).
(5) تاريخ الفاطمي د. محمد طقوس ص 392، 393.
(6) المصدر نفسه ص 393.
(7) المصدر نفسه ص 393.
(8) الخلافة العباسية (188/2).

الملك ابن عطاش ليحضر دروس العلم الباطنية في مصر وليقابل إمامهم المستنصر ويعلن لـه الـولاء وبشكل مباشر، وخرج من الري في طريقه إلى مصر عام 467هـ داعياً إلـى نحلـة القوم، في كل بلد يمـر بهـا، ووصـل القـاهرة عـام 471هـ، فاسـتقبله المستنصـر بحفـاوة فـي قصـره وتحـدثا فـي شـؤون الدعوة، وكيف تقام في بلاد العجم، وقال الحسن للمستنصر: من إمامي بعدك؟ قـال: ابنـي نـزار، وقد أكرمه المستنصر وأعطاه مالاً، وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته [1]، وبعد أن رجع إلى فارس، وبلغ أصفهان سنة 473هـ وباشر دعوته السرية، ولما ضيق نظـام الملك عليـه الخنـاق، رحـل إلـى قزوين، واستولى هنـاك علـى قلعـة " الموت " الحصـينة وجعلهـا مقراً لـه ولجماعتـه [2]، فتوسـعوا وأكثـروا الفساد في البلاد [3].

2- مراتب ودرجات أعضاء الدعوة النـزارية الباطنيـة: منُذ البدايـة حـاول الحسن الصـباح أن يحصن نفسه وأتباعه في قلاع متناثرة في أقـاليم وعرة مثل أقـاليم بحـر قـزوين وثبـت مركـزه فـي قلعة الموت بنواحي قزوين سنة 483هـ، كمـا اعتمـد أسـلوبه علـى العنـف والاغتيـال وبـث الرعـب فـي نفوس النـاس، وكـان أول ضـحاياه الـوزير السـلجوقي نظـام الملـك الـذي شـدد علـى الـدعوى النزاريـة وحاربها، كما شارك الحشاشون - فيمـا بعـد - فـي قتـل الخلفـاء العباسـيين المسترشـد والراشـد وهـددوا ملكشـاه السـلجوقي وصـلاح الـدين الأيـوبي وأمـراء مسـلمين. وروج الحسـن بـن الصـباح إلـى نظريـة الإمام المستور، وألقى على نفسه مهمة الدعوة لـه معتبراً نفسه رئيس الدعوة ونائب الإمام، أما الإمام المستور فهـو نـزار بـن المستنصـر ومـن بعـد مقتلـه أبنـاؤه، كمـا ادعـى الحسـن الصـباح بأنـه مصـدر المعرفة لأنه نائب الإمام المستور وأنه تعلم معرفتـه مـن الإمـام المعصـوم مباشـرة وزعـم وأخـذ يبشـر بالعقيدة الباطنية التي تقول : إن لكل ظاهر باطن ولكل تنزيل تأويـل وأن البـاطن هـو المهـم لأنـه اللـب وكانت تأويلاته تتفق مع نزاعته السياسية وأهدافـه التـي يريـد تحقيقهـا وكانـت الـدعوة النزاريـة دعـوة منظمة بدقة وأعضاؤها منقسمون إلى مراتب ودرجات [4].

المرتبة الأولى: مرتبة رئيس الدعوة أو داعي الدعاة وكان أيضـاً يسمى نائـب الإمـام المسـتور في بلاد الشام سمي " شيخ الجبل ".

المرتبة الثانية: كبار الدعاة.

المرتبة الثالثة: الدعاة.

المرتبة: الرابعة: الرفاق.

المرتبـة الخامسـة: الضـراوية وهـم الفئـة المسـلحة فـي الـدعوة التـي يشـترط فيهـا التفـاني والتضحية في خدمة الدعوة حتى ولو أدى ذلك إلى الموت الذي اعتبروه أشرف نهاية لأنه يضمن لهم

(1) الجهاد والتجديد ص 31.
(2) حركة الحشاشين: محمد عثمان الخشت ص 65، 66.
(3) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري ص 32.
(4) الخلافة العباسية ص (189/2).

السعادة في جنة الإمام.

المرتبة السادسة: اللاصقون.

المرتبة السابعة: المستجيبون وهم عامة الناس المؤيدون للدعوة [1]. وإليك تفصيل مهام دعاة الباطنية.

3- مهام الدعاة: لقد أنيطت بالدعاة مهام يجب عليهم العمل بموجبها وتحقيقها وتتمثل تلك المهام في الآتي:

أ- أن يبدأ الدعاة بمناقشة الطالب في المسائل الدينية وتفاسير القرآن ويعلمونه أن مسائل الدين أمور شديدة التعقيد، ولا يستطيع فهمها إلا رجال كالدعاة الذين تبحروا في درسها، ويأخذون عليه العهد بألا يذيع شيئاً مما يعلمونه من النظريات والشروح.

ب- يُعَلّم الطالب أن كل التفاسير والأحكام التي قال بها المجتهدون السابقون خاطئة، باطلة، وأن الأحكام الصحيحة هي التي يقول بها الأئمة الذين تلقوها من الله.

ج- أن هؤلاء أئمة الإسماعيلية وهم سبعة آخرهم محمد بن إسماعيل.

د- إن الأنبياء الذين تقدموا آل البيت سبعة أيضاً هم: آدم ونوح وإبراهيم وموسى والمسيح ومحمد ρ ومحمد بن إسماعيل.

هـ- بدأ الدعاة بتنفيذ مهمتهم الحقيقية وهي هدم العقيدة الدينية، فيعلمون الطالب ألا يؤمن بالسنَّة وأن يرفض تعاليم محمد ρ.

و- يسعون إلى إقناع الطالب بأن كل الأديان وما أمرت به من الفروض كالصوم والصلاة وغيرها إن هي إلا أكاذيب وحيل ابتكرت لإخضاع المجتمعات البشرية وأن جميع الشرائع لا بد أن تخضع لشريعة العقل والعلم، ويدللون على أقوالهم بنظريات أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس، مما يدل على قوة ارتباطهم وتأثرهم بالفلسفة اليونانية.

ز- يلقي الطالب تعاليم الثنوية، وبذلك تهدم عقيدة التوحيد الإسلامية وكل صفات الألوهية.

ح- يشكك الطالب في حقيقة الرسالة، ويعلم بأن الرسل الحقيقيين هم رسل العمل الذين يعنون بالشؤون الدنيوية كالنظم وإنشاء الحكومات المثلى.

ط- ويدخل الطالب إلى حظيرة الأسوار، ويعلم أن كل التعاليم الدينية أوهام محضة[2]. وهكذا يبدأ الباطنية مع من يدعونه إلى الدخول بمذهبهم فيشككونه في مبادئ الدين ونصوصه وتعاليمه وينتهون به في النهاية إلى الخروج من الدين بالجملة [3].

---

(1) الخلافة العباسية (190/2).

(2) تاريخ الحركات السرية، محمد عنان ص 42.

(3) الإسماعيلية المعاصرة، محمد أحمد الجوير ص 65.

الدكتور الخطيب يربط بين هذه الأساليب والحيل لهذه الفرقة وبين أساليب ومراحل التدرج عند الماسونية في عصرنا الحاضر، فيقول: والمطلع على أساليب الماسونية في العصر الحاضر، وطرق الدخول فيها، والتكريس الذي تمارسه على الدخول في محافلها، يستطيع أن يقارن بين أساليب الباطنية عموماً وبالأخص الإسماعيلية، وأساليب التكريس الماسوني، بحيث لا نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا: إن هناك خيطاً رفيعاً يجمع بين الباطنية والماسونية، يمكن أن نرده إلى اليهودية العالمية التي استطاعت أن توجد الباطنية وفرقها في القديم، والماسونية العالمية ومؤسساتها في العصر الحديث [1].

من هذا العرض يتضح أن الغاية القصوى من هذه الأساليب والحيل التي اتخذها دعاة الإسماعيلية إثارة الشكوك وزعزعة العقيدة الإسلامية وهدم المبادئ والقيم الاجتماعية والأدبية ومحاربة النظم السياسية [2]، وقد كان لتلك الدعوة وما قامت عليه من أسس وتنظيمات سرية دقيقة أثر كبير في نشر المذهب الإسماعيلي، ويعزز أحد دعاة الإسماعيلية المعاصرين هذه الحقيقة [3] فيقول: إنه بفضل هذا التنظيم الدقيق انتشرت الحركة الإسماعيلية بشكل لم تعهده أية دعوة في العالم [4]، بل إن الحركة في جملتها مدينة لوجودها حتى اليوم إلى تلك التنظيمات وتلك المراتب. كما يقول عارف تامر[5].

4- مراحل الدعوة: وللإسماعيلية حيل ووسائل يصطادون الناس بها، يتدرج بها الداعي مع المستجيب من مرحلة ابتدعوها ليسلَّحوا أتباعهم بها اعتقاداً منهم أن كل هذه الحيل والمراحل مشروعة لبلوغ المآرب الدنيوية لا حقيقة في هذا الوجود. وكل أمر مباح[6].

وأول هذه الحيل والمراحل:

أ- التفرس: ومن شروطه القوة على التلبيس، ومعرفة حال المدعو؛ لذا منعوا إلقاء البذرة في الأرض السبخة، والتكلم في بيت فيه سراج؛ بمعنى أن من لا أمل في إغوائه لا ينبغي أن يضيع الوقت معه، كما لا ينبغي محاولة نشر الدعوة في بلد فيه شخص متنور بنور الإسلام[7].

ب- التأنيس: بعث الأمن والطمأنينة في نفوس المدعوين وتزيين مذهب الشخص في عينه، ثم سؤاله عن تأويل ما يعتقد.

ج- التشكيك: زعزعة عقيدة المدعو بإلقاء أسئلة عليه، كسؤاله عن معاني حروف الهجاء في

(1) الحركات الباطنية في العالم الإسلامي د. الخطيب ص 129.
(2) الإسماعيلية المعاصرة ص 66.
(3) المصدر نفسه ص 66.
(4) تاريخ الدعوة الإسماعيلية، مصطفى غالب ص 34.
(5) القرامطة، عارف تامر ص 69.
(6) الإسماعيلية المعاصرة ص 61.
(7) المصدر نفسه ص 61.

أوائل السور مثلاً.

د- التعليق: ترك المدعو متأرجحاً في عقيدته متلهفاً إلى معرفة المذهب الإسماعيلي.

هـ- لربط: وهو أن يربط لسان المدعو بأيمان مغلظة وعهود مؤكدة بأن لا يفشى ما سمعه.

و- التدليس: وهو لجوء الداعي إلى التمويه وإغراء المدعو، وتشويقه للدخول إلى المذهب الإسماعيلي، مع بيانهم للمدعو أن الظواهر عذاب وأن الرحمة في الباطن، متأولين الآية الكريمة: {**فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ**} [الحديد: 13].

ز- التأسيس: تثبيت المعلومة والحقائق التي أدلى بها الداعي للمستجيب حتى تستقر في ذهنه.

ح- الخلع أو السلخ: يقصد به إقصاء المدعو عن المذهب السني نهائياً [1].

5- منطلقات الحركات الباطنية:

إذا أراد الباحث أن يفهم أساليب الدعوة الباطنية وكيفية نشرها بين الناس وسرّ انتشارها ينبغي له الوقوف على طبيعة منطلقاتها العامة التي انطلقت منها أولاً والتي يمكن تلخيصها بما يأتي:

أ- الشمولية: حاولت الحركة الباطنية تشكيل بنية الفكر الباطني في صور مذهب جامع شامل، يقوم على الجمع والتلفيق بين عقائد شتى، متنوعة ومتباينة في أصولها ومصادرها بحيث تجد هوى في نفوس جماعات مختلفة في العنصر والدين من مزدكيين ومانويين وصابئين ويهود ومسيحيين ومسلمين[2]، وهي قاعدة فكرية مركبة من شأنها أن تستهوي أناساً من مشارب شتى باعتبارها تبشر بحرية الفكر والعقيدة، وتدعو إلى ديانة أممية تزول فيها الفوارق ودواعي الاختلاف وقد نقلت المصادر جملة من عباراتهم الدالة على هذا المعنى لعل من أكثرها تعبيراً عن ذلك قولهم [3]. وينبغي لإخواننا أيّدهم الله أن لا يعادوا علماً من العلوم أو يهجوا كتاباً من الكتب ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب لأنا رأينا مذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها [4].

ب- انتقاء الدعاة: عملت هذه الحركة على انتقاء الدعاة إلى دعوتهم في حدود مواصفات دقيقة تواضعوا على ضرورة توفرها فيه، إذ هو الأداة التي يتوصل بها إلى أفراد المجتمع والنافذة التي تطل بها الدعوة الباطنية على العالم الخارجي، ومن أبرز الصفات التي ينبغي أن تتوفر في الداعي أن يكون فطناً ذكياً صحيح الحدس صادق الفراسة متفطناً للبواطن بالنظر إلى الشمائل والظواهر، وأن يكون في أسلوب عمله متبعاً لثلاثة أمور:

- أن يميز بين من يجوز أن يطمع في استدراجه بلين عريكته لقبول ما يلقي إليه من العقائد والمبادئ المخالفة لما ألفه واعتقد به أصلاً.

---

(1) فضائح الباطنية ص 121، 132.

(2) أصول الإسماعيلية ص 194 - 195.

(3) التسلل الباطني في العراق، مكي خليل ص 126.

(4) رسائل إخوان الصفا نقلاً عن التسلل الباطني في العراق ص 126.

- أن يكون ذكي الخاطر قوي الحدس في القدرة على تعبير الظواهر وردّها إلى البواطن.
- أن يدرس عقيدة المدعو وميله في طبعه ومذهبه قبل الإقدام على مخاطبته.

ولكي يتمتع الداعي بهذه الصفات لابد من إعداده إعداداً خاصاً في مدارس معينة تستطيع أن تقدم له كل أساليب الحيلة وصنوف المعرفة، وقد قامت الدولة الفاطمية العبيدية، بإنشاء المدارس السرية الخاصة بإعداد الدعاة، فكانت أولى هذه المدارس في مدينة المهدية قاعدة الدولة الفاطمية العبيدية في عهد مؤسسها عبيد الله المهدي ثم راجت في المنصورية في عهد حفيده المنصور، ثم في القاهرة في عهد المعزّ ومن جاء بعده من حكام العبيديين فكانت هذه المدارس تخرج الدعاة الذين ينبثّون في عامة البلاد الإسلامية ينشرون هذا المذهب ويكونون على اتصال دائم بمركز الدعوة والدولة [1].

ت- السرية: تشكل البنية التنظيمية للجمعيات الباطنية بصورة جمعيات سرية لها درجاتها ورموزها ومراتبها ودعاتها وقادتها وأساليب عملها المتقنة، ولهذه الجمعيات السرية عهود ومواثيق مقدسة واحتفالات دينية تضفي من خلالها على هياكلها التنظيمية معنى القداسة الروحية [2]، ويشير ابن النديم إلى هذه السرية عند كلامه على بني القداح أساس البلاء في الحركات الباطنية بقوله: وقد كان قبل بني القداح قريب ممن يتعصب للمجوس ودولتها، وتجرد لردّها في أوقات، منها بالمجاهرة، ومنها بالحيلة سرًّا، فأحدثوا لذلك في الإسلام حوادث منكرة [3]، وكانت هذه السرية تشمل سرية الوسائل وسرية الأهداف معاً، كما تشمل السرية على رجالات هذه الحركة[4]، ويشير الدكتور حسن إبراهيم حسن إلى شدة السرية في الحركة العبيدية [5]الفاطمية، ولذلك آمنت معظم الفرق الباطنية باستتار الإمام الذي لا ينبغي أن يتفوه باسمه، أو قالت بغيبته وعدم ظهوره إلاَّ حينما يجد الوقت المناسب لذلك [6].

ث- اختيار البيئة الملائمة: اهتمت الدعوة الباطنية بدراسة البيئة التي تحاول أن تبث فيها أفكارها وعقائدها وتنشئ فيها تنظيماتها، فكانت تشترط على دعاتها الذين تميزوا بقوة الذكاء وحضور الفطنة، أن يكونوا متوقدي الفراسة في اختيار المناطق التي ينشرون فيها أفكارهم وانتقاء الشرائح الاجتماعية التي يمكن أن تتقبل دعوتهم وأن يميزوا بين من يجوز أن يطمع في استدراجه ويوثق بلين عريكته لقبول ما يلقى إليه على خلاف معتقده، فربّ رجل جمود على ما سمعه لا يمكن أن ينتزع من نفسه ما يرسخ فيه، فلا يضعف الداعي كلامه مع مثل هذا، وليقطع طمعه منه، وليلتمس من فيه انفعال وتأثر بما يلقي إليه من الكلام [7] لذلك انتشرت الدعوة الباطنية في البيئات

(1) عبيد الله المهدي، حسن إبراهيم حسن ص 58.
(2) التسلل الباطني في العراق ص 129.
(3) الفهرست ص 39، لابن النديم.
(4) التسلل الباطني في العراق ص 129.
(5) عبيد الله المهدي ص 270، 271.
(6) التسلل الباطني في العراق ص 130.
(7) التسلل الباطني في العراق ص 132.

التي يكثر فيها الجهل والضلالات، وبلاد الأعاجم التي جهل عوامهم فيها الإسلام بسبب جهل عوامهم باللغة العربية ورسوخ كثير من الديانات والمذاهب القديمة، كبلاد المشرق، وقد اهتم دعاة الباطنية بهذه الأصناف من الناس في دعوتهم [1]:

- **العوام والجهلاء:** من أهل السواد وجفاة الأعاجم وسفهاء الأحداث، ممن لم يطلعوا على الإسلام حق الاطلاع.

قال الغزالي: ولعل هذا الصنف هم أكبر الناس عدداً، وكيف يستبعد قبولهم لذلك ونحن نشاهد جماعة في بعض المدائن القريبة من البصرة يعبدون أناسا يزعمون أنهم ورثوا الربوبية من آبائهم المعروفين بالشباسية [2]. وقد اعتقدت طائفة في عليّ رأنه إله السموات والأرض رب العالمين [3].

- **الموتورون الحاقدون** من أبناء الأكاسرة والدهاقين وأولاد المجوس الذين انقطعت الدولة عن أسلافهم بدولة الإسلام فاستمكن الحقد في صدورهم كالداء الدفين، فإذا ما وجد من يحرّكه اشتعلت نيرانه في قلوبهم، فأذعنوا لأيَّة دعوة تشوقهم إلى إدراك ثأرهم من المسلمين.

- **الطامحون إلى التسلط** والاستيلاء على مقاليد الأمور من غير كفاءة في أنفسهم ولا مزية يمتازون بها، ممن يريدون القفز إلى الحكم على أكتاف المضلل بهم من جهلة الناس ويظهر ذلك جلياً من دراسة سير الطامحين الذين قاموا بحركات مسلحة وقوّادهم، واستمالة بعض رجالات الدولة العباسية. كما - حدث مع البساسيري.

- **أدعياء العلم والمعرفة** ممن يعملون على التميز عن عامة الناس ويترفعون عن مشابهتهم، ويزعمون أنهم المطلعون وحدهم على الحقائق وأن بقية الخلق لا يفهمون من الأمور إلا ظواهرها، فيجتهدون بتعلم هذه المعارف الغريبة مخالفة لبقية الناس [4].

- **أتباع فرق الغلاة ممن شوَّهوا الإسلام** واعتقدوا فيه اعتقادات ليست منه، وتدينوا بسب الصحابة من المهاجرين والأنصار حيث وجدوا في الحركة الباطنية ما يساعدهم على تحقيق أغراضهم، ونشر مبادئهم الخسيسة.

- **الملحدون من الفلاسفة والثنوية والمتحيرة في الدين** ممن اعتقدوا أن الشرائع قوانين ملفقة وقد عمل زعماء الباطنية على إكرامهم وغدق ذخائر الأموال عليهم فانحازوا إليها طلباً للدنيا وحطامها وهؤلاء الذين ألَّفوا لهم الكتب ولفّقوا الشبه مستخدمين معارفهم في شروط الجدل وحدود المنطق، ودلّوا مكامن التلبيس والمغالطة فيها تحت عبارات كلية وألفاظ مجملة مبهمة قلما يهتدي الناظر الضعيف إلى فك تعقيداتها وكشف الغطاء عن مكامنها، وتدليسها، بل يقف في كثير من

(1) منسوبة إلى شباس اوابن الذي كان بالبصرة في سنة 450هـ.
(2) فضائح الباطنية ص 34.
(3) التسلل الباطني في العراق ص 133.
(4) التسلل الباطني في العراق ص 135 .

الأحيان معجبا بها هياباً منها لعدم قدرته على فك رموزها ومعرفة المقصود منها [1].

- **الإباحيون:** من استولت عليهم الشهوات فاستدرجتهم متابعة اللذات واشتد عليهم وعيد الشرع وثقلت عليهم تكاليفه، فسارعوا إلى هذه الدعوة واستحسنوها لتوافق مذهبها مع مذهبهم في هذا المجال ودافعوا عنها وحاولوا نشرها بين الناس تحقيقاً لأغراضهم، ونشراً لمبادئهم.

ج- طبيعة المرشد الروحي: يتضح من دراسة تاريخ الحركات الباطنية أن زعماءها وقادة جمعياتها السرية وحركاتها المسلحة كانوا في الأغلب الأعم شخصيات تحسن استخدام أساليب الشعوذة والمخاريق والتظاهر بالولاية والتأله، وتضفي على ذاتها سمات المرشد الروحي، الذي يختص بصفات المنقذ الإلهي الموعود ونظراً لما لهذا الداعي المتزعم من صفات روحية فائقة فليس أمام حشد المريدين وقطعان الأتباع المقلدين له إلا الدخول في طاعته، والامتثال لأوامره والانصياع لتوجيهاته بلا نظر وتبصر وتحقيق، فيتحولون في الغاية والنهاية إلى أدوات صمَّاء جامدة لا إرادة لها ولا تدبير يحركها الزعيم المتأله الروحي، كما شاء وأراد فهو المطاع الذي تنحسر إزاء إرادته ومشيئته إرادة الجميع.. يفعلون ما يؤمرون بلا عقل أو وعي أو ضمير [2].

ح- التدرج في الدعوة: قامت الحركات الباطنية على أساس من التشكيلات الهرمية المتدرجة في القيادة والمسؤولية وكسب المؤيدين والأتباع وعدم كشف أسرارهم الكبرى إلى كل أحد من الناس إلا بعد تدرجّه في مراتب التنظيم على وفق خطة مدروسة دقيقة يتوقف فيها الداعي مع من يريد كسبه إلى المرحلة التي يراها مناسبة له، ثم يستمر مع من يجد في نفسه قبولاً واستعداداً، فيكشف له أسرار الدعوة الخفيّة في نهاية الأمر بعد أن يكونوا وثقوا به الوثوق كله وأخذوا عليه العهود والمواثيق.

وقد ذكر ابن النديم ما يؤيد التدرج في الدعوة الباطنية من خلال كتابهم " البلاغات السبعة" وقال: لهم البلاغ الثاني لفوق هؤلاء قليلاً، كتاب البلاغ الثالث لمن دخل في المذهب سنة كتاب البلاغ الرابع لمن دخل في المذهب سنتين، كتاب البلاغ الخامس لمن دخل في المذهب ثلاث سنين، وكتاب البلاغ السابع وفيه نتيجة المذهب والكشف الأكبر[3]وذكر ابن النديم أن كتب الباطنية كانت شائعة متداولة بين الناس أيام معز الدولة البويهي وأن الدعاة منبثون في كل صقع وناحية[4].

6 - من أساليب الباطنية:

حاول دعاة الباطنية خداع جماهير الناس بأساليب عديدة منها.

أ- مظاهر التدين: عمل زعماء الدعوة الباطنية على التظاهر بالإسلام والالتزام بتعاليمه والغلو فيه من أجل الوصول إلى غاياتهم وتحقيق برامجهم الداعية إلى هدم الشريعة الإسلامية ومن

(1) التسلل الباطني في العراق ص 135.
(2) المصدر نفسه ص 136.
(3) التسلل الباطني في العراق ص 139.
(4) المصدر نفسه ص 140.

ثم إدخال التأثيرات الغربية في دائرة الفكر الديني الإسلامي [1]، يقول ابن الجوزي: إن الثنوية والمجوس أرادوا إرجاع مماليكهم وإبطال الإسلام ولكنهم رأوا ضرورة إخفاء مقاصدهم بالتستر بالإسلام [2]. وقد أشار الغزالي إلى تظاهر دعاتهم بالتدين والأخلاق الفاضلة في أول اجتماعهم مع المبتدئين، قال: وقد رسموا للدعاة والمأذونين أن يجعلوا مبيتهم كل ليلة عند واحد من المستجيبين، ويجتهدون في استصحاب من له صوت طيّب في قراءة القرآن ليقرأ عندهم زمانا، ثم يتبع الداعي ذلك كله بشيء من الكلام الرقيق وأطراف من المواعظ اللطيفة الآخذة بمجامع القلوب، ثم يردف ذلك بالطعن في السلاطين وعلماء الزمان وجهال العوام، ويذكر أن الفرج منتظر من كل ذلك ببركة أهل بيت رسول الله - وهو فيما بين ذلك يبكي أحياناً ويتنفس الصعداء، وإذا ذكر آية أو خبراً ذكر أن لله سراً في كلماته لا يطلع عليه إلا من اجتباه الله من خلقه وميزه بمزيد لطفه، فإن قدر على أن يتهجد بالليل مصلياً وباكياً عند غيبة صاحب البيت بحيث يطلع عليه صاحب البيت، ثم إذا أحسّ بأنه اطلع عليه عاد إلى مبيته واضطجع كالذي يقصد إخفاء عبادته[3].

ب- الانتساب إلى آل البيت والدعوة إليهم: يقول أبو عثمان العراقي الحنفي: ومن وصاياهم أن يتشيع الداعي لأهل الشيعة ويستميلهم ويظهر من نفسه أنه منهم ويظهر لهم ما فعل بأهل البيت، كيف قتلوا وكيف سبيت ذراريهم ونساؤهم ويكتب معايب الصحابة [4] بالكذب والافتراء. ويقول الدكتور عبد الله سلوم:..... إن التستر في الولاء لآل بيت الرسول ρ وسيلة تحقق لهم غرضين في آن معا:

- الإمعان في التستر والحماية على مواقفهم وعدم تعرضهم للاتهام والانتقاد.
- الإساءة لآل البيت من خلال إضفاء صفات عليهم لا يقرّها الشرع [5]. والأدلة التاريخية تبين أن عدداً كبيراً منهم إما ادعى نصرة آل البيت والأخذ بحقهم، وإما ادعى أنه من صلبهم يعمل على الأخذ بحقه في ولاية المسلمين [6]، وكانت أشد الدعوات خطورة دعوة العبيدين الذين زعموا أنهم فاطميون وتمكنوا من تكوين دولة استولت على كثير من بقاع العالم الإسلامي هددت الخلافة الإسلامية العباسية [7].

ت- نصرة المستضعفين: من الشعارات التي رفعتها الحركات الباطنية الدعوة إلى نصرة المستضعفين وتحقيق العدل والإنصاف وقهر الظالمين وإقامة دولة العدالة والإنصاف[8].

ث- التقية: أجازت الشريعة الإسلامية استعمال التقية في حالات قليلة جداً وفي حدود ضيقة

(1) المصدر نفسه ص 148.
(2) المنتظم (110/5).
(3) التسلل الباطني في العراق ص 149.
(4) الفرق المتفرقة بين أهل الزيغ والزندقة ص 109.
(5) الغلو والفرق الغالية ص 164.
(6) التسلل الباطني في العراق ص 154.
(7) المصدر نفسه ص 156.
(8) المصدر نفسه ص 156.

جداً أيضـاً، ولكن الغلاة والباطنيـة استعملوها بـأكثر من الحد الذي تجيزه شريعة الله عز وجل بل أصـبحت دينـاً لهـم يتـدينون بـه [1]. فقد عملـت الحركـات الباطنيـة علـى مخاطبـة الفئـات والشـرائح الاجتماعية المتنـافرة بمـا تشتهي وبمـا يحقق مصـالحها الذاتيـة، ويتميزون لخطـاب كل فئـة عبـارات يلبسونها ثوب الخداع ويتسترون علـى حقيقتهـا، ويقدمون لبعضـهم وعوداً مختلفـة عن الوعود التـي يقدمونها للبعض الآخر من أجل جمع كميّة من المؤيدين [2].

ويقول الغزالـي عن الحركـة الباطنيـة ودراسـة دعاتهـا لطبـائع النـاس وميـولهم ووضـع الخطـط المناسبة لكسبهم ومخاطبتهم بما تشتهي أنفسهم، قال الغزالي: فإن رآه مائلاً إلى الزهد والتقشف دعـاه إلـى الطاعـة والانقيـاد واتبـاع الأمـر مـن المطـاع وزجـره عـن اتبـاع الشـهوات وندبـه إلـى وظـائف العبادات، وتأدية الأمانـات: مـن الصـدق وحسن المعاملـة، والأخـلاق الحسنة، وخفض الجنـاح لـذوي الحاجات ولزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كان طبعه مائلاً إلى المجون والخلاعة قرر في نفسه أن العبادة بله وأن الورع حماقـة وأن هؤلاء المعذبين بالتكـاليف مثـالهم مثـال الحمـر المعنـاة بالأحمال الثقيلة، وإنما الفطنة في اتباع الشهوة ونيل اللذة وقضاء الوطر من هذه الدنيا المنقضية التـي لا سبيل إلى تلاقي لذّاتها عند انقضاء العمر [3].. إلخ.

ج- استمالة بعض رجالات الدولة والتنسيق معهم: مـن الأسـاليب التـي اتبعتهـا هذه الحركـات فـي محاولـة السيطرة علـى الدولـة العباسـية، كسـب بعـض ذوي النفـوذ مـن الأمـراء والقوّاد والأعـاجم المحبين للسلطان والسيطرة من غير اعتبـار لمبدأ أو دين؛ ومـن أمثلـة ذلك مـا قـام بـه المؤيـد هبـة الله الشيرازي من استهداف مقدم الأتراك أبـي الحـارث البساسيري بالدعوة الفاطميـة وقد كـان هذا المقدم يشغل آنذاك منصب رئيس الأتراك في عهد الخليفة القائم وقد تلقى دعماً مادياً وعسكرياً للسيطرة علـى العراق[4]وقد مرّ ذكر فتنته.

ح- استخدام الإرهـاب والعنـف: ومـن أسـاليبها اسـتخدام الإرهـاب والهجمـات المسـلحة ضـد الخصوم[5]، فسوف نرى بإذن الله أعمالهم الوحشية في هذا المضمار.

7- رسالة السلطان جلال الدين ملكشاه إلى حسن الصباح: كانت سياسـة ملكشـاه تجـاه حركـة الحسن الصباح تتراوح بين المهادنة لهم حيناً، ومقاومتهم حيناً آخر، فعندما استولى الحسن الصباح علـى قلعة الموت في عام 483هـ وانتشر فدائيوه يغتالون الآمنين، أرسل لـه ملكشـاه الإمـام أبـا يوسـف يعقـوب ابن سليمان وكان فقيهاً عالماً بالأصـول على مذهب أهل السنة لمنـاظرتهم، ولكن يبـدو أن هذه المنـاظرة لم تحقق الهدف الذي تطلع إليه ملكشاه من محاولة إقناعهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن ثم لجـأ إلـى العمل المسلح فأرسل الأمير أرسلان طاش سنة 485هـ فحاصر قلعة الموت، ولكن هزم، كما أرسل فـي

(1) التسلل الباطني في العراق ص 158.
(2) المصدر نفسه ص 158.
(3) المصدر نفسه ص 159.
(4) المصدر نفسه ص162، 163.
(5)التسلل الباطني في العراق ص 164.

العام ذاته أحد قواده فحاصر قلعة " ديرة " وهي مركز آخر من مراكزه ويبدو أن الباطنية التابعة لحسن الصباح أصبحوا شوكة حتى أن ابن كثير عندما تحدث عن أهم أحداث عام 494هـ قال: فيها عظم الخطب بأصبهان ونواحيها بالباطنيّة، فقتل السلطان منهم خلقاً كثيراً، وأبيحت ديارهم وأموالهم للعامَّة، كلٌّ من يقدرون عليه، فلهم قتله، وماله، وكانوا قد استحوذوا على قلاع كثيرة، وأوّل قلعة ملكوها في سنة 483هـ، وكان الذي ملكها الحسن الصبَّاح أحد دعاتهم، وكان قد دخل مصر وتعلَّم من الزنادقة الذين كانوا بها، ثم صار إلى تلك النواحي ببلاد أصبهان، فكان لا يدعو إلا غبيًّا لا يعرف يمينه من شماله، ثم يطعمه العسل بالجوز والشونيز[1]، حتى يحترق مزاجه ويفسد دماغه، ثم يذكر له شيئاً من أخبار أهل البيت ويكذب له من أقاويل الرافضة الضُّلال، أنهم ظُلِمُوا ومُنعِ ُوا حقَّهم، ثم يقول له: فإذا كانت الخوارج تقاتل مع بني أميّة لعليٍّ، فأنت أحقُّ أن تقاتل في نصرة إمامك علي بن أبي طالب، ولا يزال يسقيه من هذا وأمثاله حتى يستجيب له، ويصير أطوع له من أبيه وأمِّه، ويظهر له أشياء كثيرة من المخرقة والنَّيرنجات والحيل التي لا تروج إلا على الجهال، حتى التفَّ عليه بشر كثير وجمٌّ غفير، وقد بعث إليه السلطان ملكشاه يتهدده ويتوعَّده وينهاه عن بعثه الفِداويّة إلى العلماء [2]، وهذا نص رسالة ملكشاه إلى الحسن الصّباح: أنت حسن صباح قد أظهرت ديناً وملةً جديدة فأغريت الناس وخرجت على ولي عصرك، فجمعت حولك بعض سكان الجبال ثم أغويتهم بكلامك حتى حملتهم على قتل الناس وطعنت في الخلفاء العباسيين الذين هم خلفاء الإسلام وبهم استحكم قوام الملك والملّة ونظام الدين والدولة، فعليك أن ترجع عن هذه الضلالة وتكون مسلماً وإلاّ فقد عينت لك جيوشاً وأرجأت توجهها حتى تجيء إلينا أنت وجوابك، وحذار حذار على نفسك ونفوس تابعيك فارحمها ولا تلقيها في ورطة الهلاك، ولا تغتر باستحكام قلاعك ولتعتقد حقيقة أن قلعة (الموت) المستحكمة لو كانت برجاً من بروج السماء لجعلتها أرضاً يبابا ولساويتها مع التراب بعناية الله تعالى[3]، فلما قرأ الكتاب بحضرة الرسول، قال لمن حضره من الشباب: إنِّي أريد أن أرسِلَ منكم رسولاً إلى مولاه، فاشرأبت وجوه الحاضرين منهم، ثم قال لشاب منهم: اقتل نفسك. فأخرج سكِّينًا فضرب بها غَلْصَمتَه [4]، فسقط ميّتاً، وقال لآخر منهم: ألق نفسك من هذا الموضع، فرمى نفسه من رأس القلعة إلى أسفل خندقها فتقطَّع. فقال للرسول: هذا الجواب [5]. وجاء في رواية أخبر سيدك أن عندي من هؤلاء عشرين ألفاً هذا حد طاعتهم لي فعاد الرسول إلى السلطان فأخبره بما رأى فعجب من ذلك، وترك كلامهم [6]. وقد وضعت وفاة ملكشاه في عام 485هـ حداً لهذه المحاولات التي قام بها [7]، على أنه يلاحظ أن ملكشاه لم يبذل في مقاومتهم جهداً يتناسب مع قوته ومكانته فلم يتوجه بنفسه - مثلاً - لحربهم كما فعل في مناسبات كثيرة

(1) الشونيز: الحبة السوداء.
(2) البداية والنهاية (175/16).
(3) نظام الملك، عبد الهادي محمد رضا ص 605.
(4) الغلصمة: رأس الحلقوم بشواربه.
(5) البداية والنهاية 176/016).
(6) المنتظم (121/9).
(7) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 136.

عندما كان يتهدد دولته خطر من الأخطار، كما أنه صم أذنيه عن نصائح وزيره نظام الملك عندما حذره من أخطار هذه الفئة ولعل العذر الوحيد الذي يغفر لملكشاه سلوكه هذا أنه لم يمتد به العمر طويلاً بعد استيلاء الحسن على قلعة الموت وربما لو أنه مد في أجله لكان من الممكن أن يكون لـه مواقف [1] أكثر حزماً.

8- جواب حسن الصبَّاح إلى السلطان ملكشاه السلجوقي: حرص الحسن الصبَّاح على مراسلة السلطان ملكشاه لعله يؤثر فيه أو يجعله يتعاطف معه وإليك شيء من الرسالة:.... والآن أشرح شيئاً من أحوالي واعتقادي متمنياً أن يصغى السلطان إليّ ويعيرني فكره ألاَّ يشاور في أمري من أركان دولته لا سيما " نظام الملك "؛ لأن عدائي وخصومتي معهم غير خافية على السلطان، ثم بعد ذلك لا بد لي ولا مفر من اتباع رأي الملك المطاع الذي يحصل لديه كلامي ويتحققه من كتابي وإذا خالفت أنا حسن ذلك الرأي السديد فإني أُعدُّ نفسي خارجاً عن دين الإسلام، أمّا إذا اتبع السلطان في أمري هؤلاء الخصوم فإنه يجب عليّ حينذاك أن أحتاط لنفسي وأفكر في أمري لأن أمامي خصماً قوياً يجعل الباطل حقاً ويضع الحق محل الباطن، كما فعل كثيراً ولا سيما بالنسبة إليّ فلا يكن ذلك خفيًّا عن رأي السلطان وفكره. أما حال هذا العبد فإن أبي كان مسلماً على مذهب الإمام الشافعي المطلبي، ولـمّا بلغت الرابعة من عمري أرسلني أبي إلى المكتب لتحصيل العلوم ولم أبلغ الرابعة عشر حتى مهرت في ساير أنواع العلوم خصوصاً، علوم القرآن والحديث ثم جاء دور الدين، فنظرت في كتب الشافعي فرأيت في فضل أولاد النبي ρ وآله وإمامتهم روايات كثيرة، فملت إلى جانبهم وأصبحت أفحص وأتجسس وأفتش عن إمام الوقت، ثم بلغ بي الحال بواسطة حكام العصر أن وقعت في أعمال الدين التي يستكبرها ويستعظمها الناس حتى نسيت تلك الفكرة وغفلت عن ذلك الجد والعمل الأولى وأصبح قلبي كله منصرفاً إلى الدنيا وخدمة المخلوق، أمّا عمل الآخرة فقد جعلته ورائي ظهرياً ولكن الله تعالى لم يرض لي بذلك فحرّك عليّ خصمائي حتى أخرجوني منه بالقهر والاضطراب فهربت وسحت في البلدان والصحاري وقد لحقتني من ذلك أتعاب وزحمات كثيرة. كما لم يخف على السلطان حالي مع نظام الملك ولمّا أخرجني الله من تلك الهلكة علمت أن الإعراض عن الخالق والتوجه إلى المخلوق لا يثمر إلا كما أثمر لي؛ لذلك قمت بعزم الرجال إلى العمل الديني وطلب الآخرة وانتقلت من الري إلى بغداد وأقمت هناك مدة غير قصيرة حتى اطلعت على الأحوال والأوضاع وتفحصت عن حال الخلفاء وزعماء الدين فرأيت أن هؤلاء العباسيين خارجون عن مراتب المروءة والفتوة الإسلامية حتى أيقنت أن بناء الإسلام والديانة كان قائماً على إمامة هؤلاء وخلافتهم فإن الكفر والزندقة أولى وأحسن من ذلك الدين، فغادرت بغداد إلى مصر وفيها خليفة الحق الإمام المستنصر بالله ففتّشت عن حاله وقست خلافته بخلافة العباسيين فرأيته أحق فأقررت به ورفضت خلافة العباسيين، لذلك فقد أرسل بنو العباس إلى أمير الجيوش ثلاثة بغال ذهباً عدا سواها من الأموال والهدايا وأوعزوا إليه أن يرسل إليهم حسن صباح أو يبعث إليهم برأسه، وحيث إن عناية المستنصر كانت تشملني يوم ذاك فقد نجوت من تلك الهلكة، ثمّ لمّا كان العباسيون قد حرّكوا أمير الجيوش وأغروه بالأموال ارتأى ترشيحي إلى الروم داعياً الإفرنج

(1) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 136.

والكفار إلى دين الحق، ولّما سمع الإمام بذلك جعلني في كنفه وتحت رعايته ثم بعد ذلك دفع إليّ منشوراً وأمرني بإرشاد الناس إلى طريق الحق بكل ما أوتيت من قوة ومعرفة وأن أطلعهم على إمامة خلفاء مصر وحقيقتهم، فإذا نظر السلطان إلى سعادة{**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**} [النساء: 59]. فلابد وأنه لم يعرض وجاء في الرسالة أنه قال :.. وأنا حسن صبّاح - بل إن هذا الدين الذي أنا عليه اليوم هو الذي كان في زمن رسول الله ρ وأصحابه، وسيبقى هذا مذهب الحق حتى يوم القيامة، والآن فإن ديني هو دين الإسلام. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. لم ألتفت إلى الدنيا ولا إلى أعمالها بل كل عمل أعمله وكل قول أقوله لم يكن إلا خالصاً مخلصاً لدين الحق، وإني لأعتقد أن أولاد النبي ρ أحق بخلافة أبيهم من أولاد العباس وأليق بها من غيرهم، فإن رضيت أنت (ملكشاه) أن تكون هذه المملكة العظيمة التي تحملت في قبضها واستملاكها هذه الزحمات والمشقّات الكثيرة وبذلت نفوس هاتيك الجنود المجندة حتى ملكتها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ومن محاذاة القطب الشمالي إلى الهند تصبح خارجة من أيدي أولادك ويصبح أولادك مشردين في أنحاء المعمورة أينما وجدوا قتلوا وصلبوا. أقول: إذا رضيت بهذا فسترضى بالخلافة لهؤلاء، فكيف ببني العباس وهم أناس أذكر لك قليلاً مما شاهدته أنا بنفسي منهم فأقول: إنهم في كل دين وملّة لا يرتضيهم كل أحد ولن يرتضيهم وإذا حصل من لم يقف على حالهم فيعتقد بهم ويرى أحقية خلافتهم فإني قد وقفت على أعمالهم وأحوالهم كيف يسوغ لي أن أقبلهم وأعتقد بأحقيتهم؟ فإذا كان السلطان بعد إطلاعه ووقوفه على هذا الحال لن ينهض إلى دفعهم ورفع شرهم عن رؤوس المسلمين فإني لا أعلم كيف يجيب ربه يوم القيامة عندما يسأله عنهم؟ وكيف ينجو من جوابه؟ هذا هو ديني منُذ كنت وما دمت حيّاً، لم أنكر ولا أنكر الخلفاء الراشدين الأربعة ولا العشرة المبشرة بل إن حبَّهم في قلبي كان ويكون وهو كائن ولم أجد ديناً جديداً لم أكن اتخذته قبلاً ولم أظهر ديناً ومذهباً لم يكن قبلي، وأن مذهبي هو المذهب الذي كان لدى الصحابة في زمن الرسول ρ وسيكون إلى يوم القيامة والآن نأتي إلى القول بأني وأتباعي قد عصينا بني العباس وطغينا عليهم: إن كل مسلم مطّلع عارف بدينه وملتّه، كيف لا يشنّع على قوم بدؤهم ونهايتهم كان وهو كائن وسيكون على التزوير والتدليس والفسق والفجور والفساد وإن أحوالهم وأفعالهم وإن لم تكن مستورة ومختفية على العالم، غير أني أجملها لتكون لي الحجة على حضرة السلطان، نذكر أولاً أعمال أبي مسلم الخراساني، ذلك الرجل الذي سعى ذلك السعي الحثيث وتحمل تلك الزحمات العظيمة، ولم يبق من عقله وتدبيره وقوته حتى قصّر يد ظلمة بني مروان عن إراقة الدماء وأخذ أموال المسلمين وأزال عن بيت النبوة الطاهر ذلك اللعن [1] الذي كان أليق بهم من آل الرسول، ورفع الظلم عن الدنيا، ثم أقامها بالعدل والإنفاق انظر إلى هذا الرجل المحسن كيف غدروا به حتى أراقوا دمه ظلماً وقتلوا الألوف من أولاد رسول الله الطاهرين في أطراف البلاد وأكنافها وخلّفوا الآخرين مشردين وفي الزوايا مختفين حتى خلع بعضهم ثوب السيادة حفظاً لأرواحهم ومات الكثير منهم على ذلك الحال ولم يعرفوا ثم لم يبلغوا الخلافة " أي بنو العباس" حتى شغلوا بشرب المدام

(1) هذه من الروايات التاريخية الموضوعة والضعيفة ونلاحظ توظيف حسن الصباح لأكاذيب أسلافه لإضلال الناس ونرى حقارة أخلاق الباطنية في بهتان رموز الأمة كهارون الرشيد وغيره والدفاع عن المجرمين كأبي مسلم الخراساني.

والزنا واللواط وقد بلغ فسادهم إلى أن هارون الرشيد وهو أعلمهم وأفضلهم كان يحضر النساء مجلس شرابه، ولم يمنع ندماءه من ذلك المجلس حتى إن جعفر بن يحيى البرمكي الذي كان من المقيمين في مجلسه قد تصرف أو قل زنا بأخت الرشيد " العباسية " وولدت منه ولداً أخفوه عن الرشيد إلى أن حجَّ في السنين ورآه هناك فقتل جعفراً وكانت لـه أخت أصغر منها فائقة الحسن والجمال قد قربها إليه ذات يوم وزنى بها [1]ومن اللطائف المشهورة: أن الأمين بن الرشيد لمّا ولى الخلافة بعد أبيه قرّب هذه الجميلة إليه وهي عمته فزنى بها ظانا أنها لم تزل بكراً، ولما سألها عن ذلك، أجابتّ: أي بكر في بغداد لم يفضها أبوك حتى يدع أخته بكراً [2]، وبالجملة فلو أردنا تعداد أعمال هؤلاء لما وفّى العمر بعددها، هؤلاء هم الخلفاء الراشدون وهؤلاء هم أركان المسلمين الذين بهم يكون قوام الملك والمّلة ونظام الدين والدولة فلتعط النصف إذا طعنت بهم أنا أو طعن بهم غيري، إنّا عصيناهم فهل هذا حق منا أم باطل؟ وأمّا القول: بأنّا أغرينا الجهّال، فإن من الواضح عند أرباب البصائر أن ليس من شيء أشرف من الروح وما من أحد يعاف نفسه ولا سيما رجل مثلي قليل البضاعة قليل الاستطاعة في إنجاز مثل هذا العمل [3].

من حدود خراسان جمع من غلمان السلطان ومن النظامية وأرباب المعاملات كانوا قد انحرفوا أكثر من هذا بين المسلمين عن العرف، والمرسوم فبعضهم مدّ يده إلى عورات المسلمين وحريم الزهّاد والعباد حتى اختطفوا النساء بحضور أزواجهن بعضهم خان معاملات الديوان ولم ينصفه، وكلمّا استغاث الناس بأركان الدولة لم يغاثوا بل كان البلاء ينزل عليهم وعلى من تكلم وصّرح بحقهّ. هذا " نظام الملك" مدير المملكة ووزيرها قد قتل لخواجة أبا نصر الكندري وهو الوزير الوحيد الذي لم يعهد مثله في أي ملك وفي أي عصر، إذ كان عاملاً ناصحاً وذلك بتهمة تصرفه من أملاك السلطان وأمواله حتى أعدمه من الوجود. أمّا اليوم فقد أشرك معه الظلمة في أعماله إذ كان الخواجة أبو نصر يقبض العشرة دراهم فيوصلها إلى الخزينة، أما هذا فإنه يقبض الخمسين درهماً ولا يعرف النصف درهم من أعمال السلطان. أما ما يصنعه في الطين والآجر في أطراف المملكة فذلك أظهر من الشمس: أين كان للخواجة أبي نصر من ولد أو بنت وهل صرف ديناراً واحداً في الخشب والطين؟ فهل لهذا العصر مع هذا العجز والصنعة أمل في النجاة؟ فإذا ما اضطر أحدهم لرفع العار أن يبذل روحه ويتركها ليدفع واحداً أو اثنين من هؤلاء الظلمة فليس ذلك ببعيد وإذا فعل فهو معذور.... فما لحسن الصّباح وهذه القضايا وما حجته بها وما هو نافع لـه إذا أغرى أحداً وأي عمل من أعمال الدنيا يمكنه إيجاده ما لم يتعلق به تقدير سماوي[4]. وأما أمركم بأني أترك هذا النوع وإلاّ نعوذ بالله أن يصدر من عمل يخالف رأي السلطان ولكن لما كان لي أضداد وكانوا يسعون في طلبي، اخترت هذه الزاوية وجعلتها ملجأً لي وسكناً حتى أنهى حالي إلى أعتاب السلطان بعد الكون والدعة

(1) هذه من الأكاذيب التي دست في سيرة هارون الرشيد.
(2) من الأكاذيب والأباطيل.
(3) الظاهر أنه هنا قد سقطت عبارة تربط الكلام.
(4) نظام الملك ص 610، 611.

واستقرار البال، فإذ فرغت من أمر خصومي فسأتوجه. إلى عتبة حضرة السلطان وأنخرط في سلك خدامه لأعمل بكل ما أوتيت من قوة النصح بما أوجبته النصيحة من تحسين دنيا السلطان وما تبقى من أمر آخرته. أمّا إذا صدر مني خلاف، ولم أطلع أوامر السلطان فسأكون ملوماً في الدنيا مطعوناً من البعيد والقريب، وسيقال : إني خالفت ولي الأمر ولم أحظ بسعادة{**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**} [النساء: 59]. كما أن خصومي سوف يفترون عليّ عند السلطان بما لا علم لي به وينزلون قدري وحريتي لديه، كما يشهرون أعمالي على الناس بالسوء والشفاعة، وإن كانت حسنة حتى يقضوا على سمعتي وذكرى الحسن، وإذا قدمت على السلطان ومثّلت بين يديه مع وجود " نظام الملك " وخصومته لي وما عمله معي من الظلم، وما سيعمله غير مبال بكل ذلك مضافاً إلى التزام السلطان بمتابعة بني العباس، وعدم مخالفته أوامرهم ونواهيهم ومع علمه بسعيهم الخبيث في طلبي والقبض عليّ حتى ذهبت إلى مصر ولم يظفروا بي في الطريق رغم كثرة رسلهم خلفي وجواسيسهم عليّ حتى خدعوا أمير الجيوش وأقنعوه بالأموال ليقصدني ولولا عناية المستنصر بالله الخليفة الحق لكنت من الهالكين .

وأخيراً.. وأخيراً أرسلني أمير الجيوش إلى الإفرنج من طريق البحر لأدعو الكفار إلى الحق، وبفضل الله نجوت أيضاً من تلك الورطة، ثم توجهت إلى العراق بعد جهد جهيد وبعد تلك المشقات والزحمات وكان بنو العباس لم يزالو ساعين في طلبي [1]واليوم وقد بلغت هذا المقام وأظهرت دعوة الخلفاء العلويين وحصلت على عدد من المجتمعات في طبرستان وقهستان والجبال واجتمع حولي كثير من الأحباب والمؤنسين والشيعة والعلويين حتى أصبح بنو العباس يخشون جانبي ويخافون سطوتي، وإذا ما تغير مزاج السلطان عليّ وسعى في قصدي لإمكان طلب العباسيين إيّاي منه لا يعلم ماذا سيكون وماذا سيحدث، وإذا حدث شيء على أي نوع كان فإنه لا يخلو من شناعة إذ لو أجابهم السلطان إلى طلبهم فإنه لا يعذر في شرع المروءة والإنصاف وإن لم يجب التماسهم تقوّل عليه بعض الجهال ونالوا منه وامتد على السلطان لسان التشنيع وقيل فيه: " ما هذه الغاشية التي تحملها السلطان منهم وما هو عدم تسليمه حسن صباح لهم " [2]. ومن المحتمل أيضاً أن تحصل بينهم المقاومة والنزاع وفي الأخير لا تعلم نهاية الأمر. وأما حديث " سرسنك " وأمركم بأنه لو كان برجاً من بروج السماء.. فإن أهالي سرسنك يعتقدون ويثقون من قول الدهر الحق [3]، بأن هذا البرج لا يخرج من أيديهم إلى زمن بعيد ومدة قصيرة؛ لأنه يتعلق بعناية الله - تعالى - والآن وأنا قابع في هذه الزاوية عاملاً بكل فرض وسنة أرجو وأطلب من الله - تعالى - ورسوله أن يهتدي السلطان وأركان دولته إلى طريق الصواب، وأن يرزقهم الله دين الحق وأن يرفع فسق بني العباس وفجورهم عن الناس [4].

(1) نظام الملك ص 612.

(2) فقد ورد في حوادث سنة 458هـ أن السلطان " ألب أرسلان " ولى ابنه ملكشاه وحمل بين يديه الغاشية دول الإسلام (407/1).

(3) المقصود هنا: هو المستنصر بالله الخليفة الفاطمي في مصر.

(4) نظام الملك ص 613.

وفي هذه الرسالة محاولة من حسن الصَّباح لزعزعة ملكشاه في معتقده في البيت العباسي والخلافة العباسية وحشد لها أكاذيب وأباطيل، كما أراد أن يضعف العلاقة بين ملكشاه ونظام الملك وعمل على التأثير الفكري والعقائدي على السلطان نفسه ولا ندري مدى تأثير هذه الرسالة على ملكشاه وإن كان ابن الجوزي ذكر عن ابن عقيل؛ أن السلطان ملكشاه، كان قد فسدت عقيدته بسبب معاشرته بعض الباطنيّة، ثم تَنَصَّل من ذلك ورجع إلى الحق[1]، وهذا يظهر خطورة الدعوات الباطنية الباطلة على حكام المسلمين والنخب وإن كانوا صالحين ما لم يتحصنوا بعقيدة أهل السنة والجماعة وتواصلوا مع العلماء الربانيين، كما أننا نلاحظ أثر الرسائل في دعوة الآخرين والتأثير عليهم سلباً أو إيجاباً والذي يبدو أن هيبة الخليفة والخلافة العباسية قد زالت من نفس السلطان ملكشاه، فقد عزم على نفي الخليفة من بغداد وسيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله.

9- دولـة الإسماعيلية في إيران:

لم يكد الحسن الصباح يستولي على قلعة الموت حتى بادر بالاستيلاء على القلاع المجاورة، فأطلق دعاته لتحقيق هذا المأرب [2]. ولم يمضِ وقت طويل حتى كان الصباح قد استولى على المنطقة الواقعة جنوبي بحر قزوين برمتها بعد أن سيطر دعاته على القلاع المتناثرة في أرجائها، والتي تبلغ نحو الستين قلعة، كانت هذه القلاع تقع في الغالب وسط وديان صالحة للزراعة وبالقرب من موارد ثابتة للمياه، فالملاحظ أن القلاع الرئيسية في أراضي الإسماعيلية كانت تقع بالقرب من نهر " شاهرود " وفروعه[3]، وكانت القلعة تكون وحدة اقتصادية عسكرية مستقلة بذاتها، يعيش أهلها معتمدين على أنفسهم في زراعة الأرض والدفاع عن القلعة وما حولها في مواجهة أي غزو أو اعتداء، ولقد كان للوفرة والتنوع الذي امتازت به المحاصيل التي يمكن أن تزرع في هذه المنطقة أكبر الأثر في تحقيق استقلالها وتكاملها الاقتصادي وكانت المحاصيل تزرع في الأرض المحيطة بالقلاع، ويبدو أن الإسماعيلية كانوا يضطرون إلى الامتناع بقلاعهم في أثناء الحملات التي كان يشنها عليهم أعداؤهم ويتركون الأراضي المزروعة حول القلعة دون حماية مما كان يعرض محاصيلهم ومزروعاتهم للنهب والغارة والتلف.

ولكن ذلك لا يعني أن هذه القلاع كانت تعيش في معزل عن بعضها البعض أو يحكمها مقدموها دون رقيب أو معقب، وإنما كانت كل واحدة من هذه القلاع تكون وحدة محلية تابعة للسلطة المركزية في قلعة الموت، فقد كان رؤساء هذه القلاع يتبعون مباشرة الحاكم الإسماعيلي في قلعة الموت الذي كان يمثل السلطة العليا [4]،... وكانت المناطق التي تسيطر عليها هذه القلاع جميعاً تمثل رقعة واحدة من الأرض تقع جنوبي بحر قزوين وتمتد فتشمل الطالقان في الجنوب الشرقي حتى حدود قزوين جنوباً كما تمتد غرباً حتى بهرام آباد ورودبار على الحدود المتاخمة لشرقي أذربيجان وذلك يعني أن

(1) البداية والنهاية (133/16).
(2) دولـة الإسماعيلية في إيران، محمد السعيد ص 95.
(3) المصدر نفسه ص 95.
(4) دولـة الإسماعيلية في إيران ص 96.

المناطق التي سيطر عليها الإسماعيلية كانت ذات حدود سياسية تفصلها عن المناطق المجاورة لها والتي تقع تحت سيطرة غيرهم، غير أن هناك ولاية تقع خارج نطاق هذه الحدود استطاع الإسماعيلية الاستيلاء عليها وهي ولاية قهستان [1]، المجاورة لخراسان منُذ سنة 484هـ، فأصبحت تابعة للدولة، وظل حكامها المحليون يتبعون ملوك الإسماعيلية في الموت حتى قضى عليهم المغول[2].

10- نظام الملك ومشروعه في محاربته للمد الباطني:

إن كتب الفرق من السنة يعتبرون الإسماعيلية بجميع فروعها من فاطمية " عبيدية " أو قرامطة أو نزارية " حشيشية " أو غيرها من فرق الغلاة الباطنية؛ لأنهم تطرفوا في العقيدة وانحرفوا عن الإسلام الصحيح، و وللرد على مزاعم الإسماعيلية الباطنية، ألف مثلاً أبو حامد الغزالي كتابه الموسوم " فضائح الباطنية " داحضاً لادعاءاتهم، ثم إن السلطنة السلجوقية حاربت البدع الإسماعيلية، وتميز من السلاجقة وزيرهم نظام الملك الذي أدرك نشاط الدعوة الإسماعيلية في كسب أعداد كبيرة من عامة الناس، فبدأ بتأسيس عدد من دور الثقافة والتعليم من أجل نشر الوعي والثقافة الإسلامية الصحيحة لتحصين الفرد ضد دعوات الإسماعيلية وهذه المؤسسات عرفت بالمدارس النظامية وقد أنشئت في بغداد والموصل وأصفهان ونيسابور ومرو وبلخ وهراة وغيرها من المدن، بل إن رواية تاريخية تشير إلى أنه أنشأ في كل مدينة عراقية وخراسانية مدرسة [3]وسيأتي الحديث عن المدارس النظامية في العهد السلجوقي بالتفصيل بإذن الله - تعالى-.

* * *

(1) هي الجبال التي بين هراة ونيسابور.
(2) دولة الإسماعيلية في إيران ص 97.
(3) الخلافة العباسية (191/2).